# قصيدة على الحصري القيرواني

# ( يا ليل الصب )

## بين معارضات الشعراء والشواعر

## دراسة وتحليل وموازنة


بحث من إعداد

د/ محمد محمد خميس شعبان

أستاذ مساعد – أدب ونقد

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

# بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمـــة ..... :

الحمد لله حمدا يليق بجلاله وكبريائه ، ويكـــافئ نعمـــه وآلاءه ، والصـــلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وآله وأصحابه وبعد .....

فقصيدة ( يا ليل الصب متى غده ) للشاعر على بن عبد الغـــنى الحصـــري القيرواني ، من القصائد التى حظيت بالشهرة والقبول ، ولاقت من الإعجاب بها ما لم تلقه قصيدة أخرى ، فقد عارضها – كما جاء فى حصر الباحثين : محمد المرزوقى ، والجيلانى بن الحاج يحيى – مائة وتسعون شاعرا وشـــاعرة ، فى عصـــور الشـــعر المختلفة ، وقد يغيب عن الحصر عدد آخر لم يســـتطع التقصـــى والتتبـــع رصـــد معارضاتهم .

ولقد ذكر حقيقة هذا الإعجاب ، ودعا إلى إجـــراء الشـــعر مجـــرى هـــذه القصيدة، الشاعر العراقي محمد على حسن بقوله :

الـــشـــعر هلم نردده  لحنا فى الحب وننشده

ولنجر الشعر به مجرى  يا ليل الصب متى غده

كما أنه ذكر فى سياق هذا الإعجاب ، وخلال هذه الدعوة عددا من فحول من عارض هذه القصيدة فقال :

وكما قد عارضها ( شوقى )  ( مضناك جـــفاه مرقده )

وكذلك عارضها ( صبرى )  ( أقريب من دنف غده )

و( كمال الدين بـــروعـــته  ( الشعر بحبـــك أنشده )

و (جميل النظم ) بمـــطلعـــه  ( أمتاع الليل دنا غـــده)

وقد أشاد بقصيدة الحصري كثير من المؤرخين والمترجمين والدارسين ، وذكر بعضهم معارضاتها إجمالا ، ومنهم من أوردها تفصيلا ، كما مر آنفا .

غير أن أحدا منهم لم يتعرض – حسب علمى – لدراسة هذه المعارضات وتحليلها وعقد موازنة بينها وبين القصيدة الحصرية . بعد دراستها وتحليلها هى الأخرى.

ولما كان صدى هذه القصيدة الجميلة ، قد بلغ الآفاق ، وجاب الأقطار وهزّ أوتار الشاعرية لدى الشعراء والشاعرات ، حتى أصبح بغية كثير منهم أن يعارضها ولو بقصيدة ، وأن يحاكيها ولو بمقطوعة ، بل بلغ الأمر حد تلقف بعض الملحّنين والمغنّيين لقصائد بعض المعارضين ، لتوضع فى إطار إيقاعي غنائي يزيدها جمالا على جمال وحسنا إلى حسن .

ولما كان الأمر كذلك فإنى وجدت فى مجال دراسة هذه القصيدة ومعارضاتها فراغا لم يشغل ، ونقصا لم يكمل ، وذلك هو تحليل قصيدة الحصري ، ودراسة وتحليل معارضاتها ، ثم الموازنة بين هذه القصيدة وبين القصائد المعارضة لها ، فاستخرت الله تعالى فى ذلك ، وعزمت على أن يُشغل هذا الفراغ ، وأن يُستدرك هذا النقص بأن أقوم – بعون من الله وتوفيقه – ببحث تحت عنوان :

قصيدة على الحصري القيرواني ( يا ليل الصب متى غده )– بين معارضات الشعراء والشواعر – دراسة وتحليل وموازنة

وقد وجدت من المناسب لهذا الموضوع أن توضع له خطة بحث تتكون من مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة وملحق وقائمة بالمصادر والمراجع وذلك على النحو التالى:

أولا – المقدمة : وفيها ما تحدثت به تحت عنوانها سلفا .

ثانيا – التمهيد : وفيه موضوعان :

الأول : فى معنى المعارضة ونشأتها

الثانى : فى تعريف موجز بالحصري ( اسمه ونسبه )

ثالثا – المبحث الأول : قصيدة ( يا ليل الصب متى غـــده ) دراســـة وتحليل وفيه خمسة مطالب :

الأول : عرض القصيدة

الثانى : حجم القصيدة

الثالث : متى قيلت القصيدة ؟

الرابع : مصادر القصيدة

الخامس : تحليل المقدمة الغزلية لقصيدة الحصري

رابعا – المبحث الثانى : معارضات الشعراء – وفيه مطلبان :

الأول : معارضات القدامى

الثانى : معارضات المحدثين

خامسا – المبحث الثالث : معارضة الشاعرات – وفيه ثلاثة مطالب :

الأول : خصوصية التجربة الشعرية

الثانى : نمط المعاناة

الثالث : البناء المهيمن

سادسا – الخاتمة : وفيها أهم الملاحظات والاستنتاجات

سابعا– ملحق بأسماء الشعراء والشاعرات الوارد ذكر معارضـــات لهـــم فى البحث

ثامنا – قائمة بمصادر و مراجع البحث

هذا ، و أسأل ربى سبحانه أن يمن علىّ بالتوفيق والنجاح والتأييد وهو حسبى ونعم الوكيل .

# المبحث الأول

## قصيدة ( يا ليل الصب )

## دراسة وتحليل

## وفيه خمسة مطالب

**المطلب الأول** عرض القصيدة :

يا ليلُ الصبُّ متى غدُه ... أقيامُ السَّاعةِ مَوْعِدُهُ

رقدَ السُّمَّارُ فأرَّقه ... أسفٌ للبينِ يردِّدهُ

فبكاهُ النجمُ ورقَّ لـه ... لمّا يرعاه ويرْصُدهُ

كلفٌ بغزالٍ ذي هَيَفٍ ... خوفُ الواشين يشرّدهُ

نصَبتْ عيناي له شركاً ... في النومِ فعزَّ تصيُّدهُ

وكفى عجباً أنّي قنصٌ ... للسِّرب سباني أغْيَدهُ

صنمٌ للفتنةِ منتصبٌ ... أهواهُ ولا أتعبَّدُهُ

صاحٍ والخمرُ جَنَى فمِه ... سكرانُ اللحظ مُعربِدُهُ

ينضُو مِنْ مُقلتِه سيفاً ... وكأنّ نُعاساً يُغمدُهُ

فُيريقُ دمَ العشّاقِ به ... والويلُ لمن يتقلّدهُ

كلّا لا ذنْبَ لمن قَتَلتْ ... عيناه و لم تَقتُلْ يدهُ

يا من جَحَدتْ عيناه دمي ... و على خدَّيْه توَرُّدهُ

خدّاكَ قد اعْتَرَفا بدمي ... فعلامَ جفونُك تجْحَدهُ

إنّي لأُعيذُكَ من قَتْلي ... وأظُنُّك لا تَتعمَّدهُ

باللّه هَبِ المشتاق كَرَى ... فلعلَّ خيالَكَ يسْعِدهُ

ما ضرَّك لو داوَيْتَ ضَنى ... صَبٍّ يُدْنيكَ وتُبْعِدهُ

لم يُبْقِ هواك له رَمَقا ... فلْيَبْكِ عليه عُوَّدُهُ

وغداً يَقْضي أو بَعْدَ غدٍ ... هل مِنْ نَظَرٍ يتَزوَّدهُ

يا أهْلَ الشوق لنا شَرَقٌ ... بالدّمعِ يَفيضُ مَوْرِدُهُ

يهْوى المُشْتاقُ لقاءَكُمُ ... وظروفُ الدَّهْرِ تُبَعِّدهُ

ما أحلى الوَصْلَ وأعْذَبَهُ لولا الأيّـامُ تُنَكّدهُ
بالبَينِ وبالهجرانِ فيـا لِفُؤَادِي كيف تَـجَلّدهُ
الحُـبُّ أعَفُّ ذَويه أنا غيري بالبـاطِلِ يُفْسِدهُ

**المطلب الثانى** : حجم القصيدة :

ليست هذه الأبيات هى كل القصيدة ، وإنما هى فقط مقدمة لقصيدة فى المـدح بلغت أبياتها تسعة وتسعين بيتا ، قالها الحصري فى مدح الأمير أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر أمير ( مرسيّة [1] ) .

والمقدمة غزلية صدر بها الحصري قصيدته على عادة الشعراء فى عصـره وقبـل عصره ؛ من الاستهلال بالغزل لما له من أثر فى استمالة الأسماع وإطراب القلوب .

ولما كان لهذه المقدمة ما لها – مما سنعرض له لاحقا – من تكامل ففي واحتوائهـا لتجربة فى الغزل متكاملة ، صحّ إطلاق اسم القصيدة عليها ، فصار الناس يقولـون قصيدة : يا ليل الصب متى غده ، ويعكفون عليها مطالعة ودراسة وتأملا ، غـافلين أو متغافلين فى كثير من الأحيان عن الجزء الأكبر من القصيدة والتى جاءت المقدمـة تهيّء له .

**المطلب الثالث** : متى قيلت قصيدة الحصري ؟ وما مناسبتها ؟

يفهم من عرض قصيدة الحصري أنها قيلت بمناسبة وشاية سعى صاحبها إلى الأمير محمد بن طاهر المذكور آنفا ، ليوقع الحصري فى شرك سبّ الأمـيـر فى مجلـس وزيره [2] وهى قمة تبرّأ منها الحصري فى إعلان شعري يقول فيه :

أتراك غضبت لمـا زعموا وطمى من بحرك مزبده

---

[1] – إحدى مدن الأندلس ، وهى قاعدة تدمر بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم

[2] – انظر مقدمة عن قصيدة ( ياليل الصبّ ) لمحمد المرزوقى والجيلانى يحيى صـ ٩ ـ .

وبـــدا من سيفك مبـــرقه وعلا من صوتك مرعده
مـــا لى ذنب فـــتـــعاقبى كذب الواشى تبت يده
ولو استـــحقـــقت معاقبة لأبى كـــرم تـــتـــعوده
فـــوزير العصر وكاتبـــه ومـــرســـله و مقصده
يـــبدى ما قلت بمجلســـه أيـــضا ولسوف يفنده
إن كنت سببتك فض فمى وكفرت بـــرب أعبده [٣]

وإذا كان الأمر كذلك فيمكن أن أقول إنّ القصيدة قيلت فى الفتـــرة مـــن ٤٥٥ هـــ إلى ٤٧١ هـــ وهى الفترة التى حكم فيها الأمير محمد بن طاهر مرســيّة [٤] . قد يكون هذا الأمير على علم ودراية بالحصري قبل توليه ، ويرجح هذا مـــا قيل فى ترجمته [٥] من أنه كان من أهل العلم والأدب البارع ، يتقدم رؤساء عصـــره فى البيان والبلاغة ، وقد لا يكون كذلك ، ولكن المؤكد أن القصيدة إنما قيلـــت فى عهد سلطان أبى عبد الرحمن ، مما أفزع الحصري وجعله يخطب ودّه بهذه القصـــيدة الرائعة ، ويستلّ سخيمة نفسه بها كما سلف فى الأبيات المذكورة .

ولما كان الأمير على قدر رفيع فى العلم والأدب ، ولما كان كـــذلك ذا بطـــش وسلطان ، همّ الحصري يدافع عن نفسه ، ويترع فتيل هذه الوشاية ، فكان ما كان منه من نسج قصيدة : ( يا ليل الصب ) على غير مثال مســـبوق وفى درجـــة مـــن الجودة والروعة والإتقان عالية ، مما جعلها ذات قدرة ، ليس على تأثيرهـــا علـــى الأمير فقط ، وإنما على كل من يسمعها من لدن زمن قولها إلى يومنا هذا .

ولقد تخطت القصيدة حدود المناسبة ، وتجاوزت محيطهـــا الضّيـــق لتصبـــح

---

[١] – الأبيات مختارة من البيت رقم ٧٥ إلى البيت رقم ٨٦ من قصيدة ياليل الصب.

[٢] – الحلّة السّيراء لابن الأبار ١١٦/٢ وما بعدها

[٣] – المرجع السابق

مقدمتها الغزليّة على وجه الخصوص لحنا عذبا ، يتردد فى الأنحاء فيطرب الأسماع ويشجى القلوب ، ويهزّ المشاعر والأحاسيس .

وصدق ربنا سبحانه وتعالى فى قوله الكريم : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ فإن هذه المكيدة التى كيد بها للحصري فتقت شاعريته، وعمّقت تجربته ، وربطت بين ماضيه وحاضره ، وبين حاله وواقعه ، فى تأمل واستبطان مشوب بلفحة من حزن عميق ، وأسى ممض موجع ، فكانت التجربة الشعرية فى عمقها وبعدها مفرزة للتجربة الشعوريّة على النحو الذى ذكرت .

## المطلب الرابع : مصادر القصيدة :

ذكر بعض المترجمين للحصري مجموعات من شعره ، وذكر آخرون أن له ديوان شعر ، وقد يوقع هذا فى الحيرة ! إذ قد يظن أن هذه المجموعات هى محتوى ديوانه ، وقد يظن أن الديوان يتضمنها وغيرها من أشعار أخرى ، وهذا هو الأقرب إلى الصواب ، فالمجموعات إنما تصنف عددا من القصائد يربطها خيط واحد ، وهناك أشعار أخرى لا ينتظمها هذا الخيط ، لم تجمع تحت عنوان فى مجموع كالمدائح والهجائيات .

أما المجموعات فهى :

١- المعشرات ؛ وهى مجموعة من القصائد فى الغزل تنتهى بالحرف الذىبدأت به ، فى أبيات عدتها عشرة على قافية تنتظم حروف المعجم [٦] ومجموع أبيات المعشرات يبلغ مائتين وتسعين بيتا باعتبار " لام ألف " حرفا مستقلا. وربما كانت من وحى مأساته بفرار زوجته الشابّة عنه ، والتى كان بها شغوفا [٧] .

---

٦ - تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان القسم الثالث ٥-٦ صـ ١٢٤ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م .

٧ - القصيدة الحصرية فى مقرأ الإمام نافع صـ ١٨ ـ تحقيق وتقديم د/توفيق العبقري

والقصائد فى مخطوط بالقاهرة تحت رقم ثان ٣٦٣/٣ [٨] واسم المعشرات مأخوذ من التزام حد العشرة فى نسيج القصيدة الواحدة بلا زيادة أو نقصان . ولعل الحصري يكون أول من ابتدع هذا النظام فى البناء الشعري

٢- اقتراح القريح واجتراح الجريح ، وهى مجمنوعة من القصائد المتنوعة فى القافية والوزن ، بلغ تعداد أبياتها واحدا وتسعين وخمسمائة وألفين من الأبيات ، صورت جميعها مأساة الحصري بفقد ولد له مات صغيرا [٩] والمجموعة ذكرها بروكلمان تحت هذا العنوان فى القاهرة أول ٢٠٥/٤ ثان ٢٠/٣ [١٠] .

٣- القصيدة الرّائيّة فى مقرأ الإمام نافع ، وهى منظومة علمية فى قراءة إمام أهل المدينة : نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، وتقع فى مائتين وخمسة عشر بيتا . فيدها بروكلمان فى مخطوط بقوله : برلين ٦٤١ الأمبروزيانا القاهرة ثان /الملحق ٢ [١١] .

٤- كتاب القصائد ، وهي مجموعة من المدائح نسجت فى مدح المعتمد بن عباد وقدمها إليه عند اجتيازه إلى طنجة سنة ٤٨٤ هـ [١٢] ولعل هذه المجموعة هى التى يسميها ابن قنفد " كتاب القصائد [١٣] " وأما الديوان فقد ذكرها ابن خلكان [١٤] حيث قال وله ديوان شعر وأشار إليه أحد الباحثين ،

---

٨- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان الموضع السابق

٩- القصيدة الحصرية صـ ١٨ ، ١٩ صـ .

١٠ - تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٥-٦ صـ ١٢٤ —

١١- المرجع والموضع السابق

١٢- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشي صـ ٢٠٥ ، ٢٠٦ — .

١٣- القصيدة الحصرية صـ ١٨ — وانظر الوفيات لابن قنفد صـ ٢٦ — .

١٤ - وفيات الأعيان ٢٣٢/٣

وقال : منه قطعة صالحة ضمن مخطوط محفوظ فى مكتبة الاسكوريال [١٥] .

والديوان على هذه الصورة التى نقلت عنه لم ينفرد فى مخطوط متاح ، ولم يرد كاملا فى المكان الذى ذكر أو فى غيره .

وقد تفرقت بعض أشعار الحصري فى المصادر التى ترجمت له أو تحدثت عن علاقاته السياسية أو العلمية أو الأدبية أو الاجتماعية ، ومن أكثرها عناية بهذا الشأن كتاب ( الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ) لابن بسام فقد ذكر نتفا من شعره فى أغراض مختلفة ، وبعضا من نثره ، ويبدو أن الديوان المشار إليه أو القطعة المتبقية منه ، إنما هى من عناية من كان يهتم بشعر الحصري فيدون ما يتاح له سماعه منه من الحصري أو من غيره ، أو ممن كان يحرص للحصري على تدوينه وإهدائه ، إذ أن الحصري كما يروى [١٦] : قد قام بحرق ما كان لديه من أشعار فى آخر حياته ، ويبدو كذلك أن هذا الديوان مجموع متميز ( فى موضوع واحد ) ، أو غير متميز ( فى أغراض شتى ) فلم يرد فى وصفه أى تحديد .

ويستوقفنا فى هذا العرض أمر قصيدة ( يا ليل الصب ) فلم يرد لها ذكر فى كل ما سبق ! .

أما لماذا ؟ فقد كفانا الجواب ما ذكره صاحب وفيات الأعيان بقوله : فمن قصائده السائرة : قصيدته :

يا ليل الصب متى غده ... أقيام الساعة موعده

رقـد السّمّار فأرّقـه ... أسف للبـين يردده

---

[١٥]- القصيدة الحصرية صـ ١٩ ـ نقلا عن صدور الأفارقة للدكتور /حسن حسنى عبد الوهاب صـ ٥ ـ .

[١٦]- السابق صـ ٢٦ ـ .

وهى مشهورة فلا حاجة إلى ذكرها [١٧] .

فسيْرورة القصيدة وشهرتها أغنت كما يقول ابن خلكان عن الحاجة إلى سـردها كاملة ، والأمر لم يعد أمر سرد ، وإنما أمر صدى هذه القصيدة وبيان أثرها .

على أن ابن خلكان ألمح من جهة أخرى – وهو قريب زمن بالحصـري – ( توفى ٦٨١ هـ ) إلى وجود ديوان للحصري منه هذه القصيدة .

ونخلص من هذا إلى أن مصدر قصيدة : ( يا ليل الصب ) إنما هو هـذا الـديوان الشامل لجمل أشعار الحصري ، والذى أشار إليه ابن خلكان قديما .

وفى العصر الحاضر قام الأستاذان : محمدالمرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى بعملين كبيرين عظيمين ، أما أولهما فهو عمل دراسة جادة عن الحصري ومختارات من شعره تحت عنوان : ( على الحصري دراسة ومختارات [١٨] ) وفى هذا العمل قـدما تحقيقـا لكمّ كبير من أشعار الحصري من ضمنه تحقيق قصيدة ( ياليـل الصـب ) وأمـا ثانيهما فهو جمع القصائد التى عارضت قصيدة الحصري ولا سيما فى العصر الحديث ، وذلك فى كتاب أسماه : قصيدة يا ليل الصب ومعارضاتها [١٩] .

والكتاب الأخير تصدّرته مقدمة مختصرة فى التعريف بقصيدة ( يا ليـل الصـب) وسبب إنشائها ، وفيها أشار المؤلفان اللذان جمعا المعارضات إلى الجهود التى بـذلت قبلهما فى هذا الصدد ، وما قاما به ، فقالا : " وقد عمد بعـض الأدبـاء إلى جمـع معارضات ( يا ليل الصب ) ونشرها مع القصيدة فى كتيبات صغيرة اطّلعنـا علـى ثلاثة نماذج منها ، وقد اقتصر بعضهم على على نشر الجزء الغزلي مـن القصـيدة

---

[١٧]– وفيات الأعيان ٣/٣٣٢ ، ٣٣٤

[١٨]– من طبعاته طبعة الدار العربية للكتاب ط٢ ١٩٨٦م .

[١٩]– طبعته أيضا الدار السابقة

ونماذج من معارضاتها [٢٠] " ثم قالا : " وإن شهرة هذه القصيدة وكثرة معارضاتها ، شجعنا على نشره فى كتاب خاص مع إضافة أهم ما استطعنا الحصول عليه من المعارضات القديمة والحديثة ، من بينهما معارضات شعراء تونس التى لا توجد فى المجموعات المنشورة ، تعميما للفائدة ؛ إن قصدنا الأول أن يكون هذا الكتاب مرجعا يغنى الباحثين والدارسين عن الرجوع لعدد من المصادر التى يندر وجودها [٢١] " .

وقد تبين من هذا العرض أن محاولات جمع المعارضات إنما توخت الجمع فقط دون قصد الدراسة والتحليل والمقارنة .

وكما قال المرزوقى والجيلانى فإننى سأعتمد على الله أولا ثم على كتابهما فى الرجوع إلى قصيدة ( يايل الصب ) وإلى ما جمعاه من معارضاتها، مع الرجوع إلى ما تتيحه المصادر الرئيسة من معلومات ، أو منثورات أبيات لقصيدة الحصري .

## المطلب الخامس : تحليل المقدمة الغزليّة لقصيدة الحصري :

### أولا – التجربة :

١– تجربة الحصري الشعورية فى قصيدته عموما وفى مقدمتها الغزليّة خصوصا هى المعاناة الطويلة الشاقة الحاملة على اليأس من فرج يبدد ألمها وفجر يقشع ظلامها ، واطمئنان يزيل حيرتها .

والمعاناة فى حياة الحصري واقعا ملموسا ؛ فقد عانى فقد البصر ؛ فتجد الظلام فى شعره وخياله حيا ملازما ، على الرغم من نور البصيرة

---

[٢٠] – يا ليل الصب ومعارضاتها لمحمد المرزوقى والجيلانى صـ ٨ ـ .

[٢١]– الموضع السابق

المستعاض والذى عبّر عنه بقوله [٢٢] :

وقالوا قد عميت فقلت كلا وإنى اليوم أبصر من بصير

سواد العين زاد سواد قلبى يجتمعا على فهم الأمـــور

وفقد البصر – لا شك – يشكل معاناة حياتية ، تتمثل فى عسر الحركة وعسر الحصول على كثير من الاحتياجات ، مما يرسب فى النفس ألمـــا ويفـــرز فى الشعور حزنا وأسفا .

وعانى الحصري مأساة فقد ولده الصغير ، والذى كان يعدّه لأيامه ومســـتقبله ، فتخطفه الموت فى عمر باكر ، وفيه أطال البكاء والتفجع فكـــان ديوانـــه اقتـــراح القريح واجتراح الجريح دموعا غزارا سفحت على فقد هذا الولد .

والقصيدة التى بين أيدينا مفرز معاناة خاصة هى الشعور الحاد بالحسد مـــن قبـــل الأقران والمنافسين مما جعل الحصري يتلفت للهجاء تلفت الظمآن إلى المـــاء [٢٣] ولا شك أن من كان هذا حاله وشأنه فإنه لا يهنـــأ بالراحـــة النفســـية ، ويســـتروح الاطمئنان ، ويطيب نفسا بالبهجة .

وإذا ذهبنا نستقصى على صفحة الواقع الحياتي مظاهر المعاناة التى عايشها هـــذا الرجل فإن الحديث بنا يطول ، ويخرج بنا عن الإشارة الدالة ، واللمحة المعبرة .

فإذا جاءت واقعة الوشاية بالحصري عند سلطان بـــاطش ذى بـــأس شـــديد ، تفجرت كل روافد المعاناة الحياتية لتتجمع فنيا فى تجربة شعورية وتتجسد فى قصـــة حب وحرمان ، وصبابة ووجد ، دون تحقيق بصيص من أمل فى لقاء يطفئ لهيـــب الشوق ، وجذوة الوجد .

---

[٢٢] – معجم الأدباء لياقوت الحموى ١٤/٤٠،٤١

[٢٣] – الذخيرة لابن بسام ٧/٢٤٦ .

والتجربة على الصعيد العام تجربة كل عاشق محروم ، يكابد السهر وضجر الصبر فى انتظار فرج بلقاء ، ومن ثم جاءت شهرتها وسيرورتها وترجمتها لأحوال قطاع عريض من العاشقين .

وعلى الصعيد الفني تتفجر ينابيعها بكل صنوف المعاناة التى يمكن لإنسان أن يعانى منها ، فقد ترمز لمن يعانى الحرمان من أى شئ ، ويطول انتظاره وتمنيه لتحقيقه أو يأسه منه. وموضوع التجربة الشعورية ، أو الموقف المفجر للمشاعر و الأحاسيس والعواطف، فتاة بلغت فى الجمال والدلال والتمنّع مبلغا ، كأنها صنم للفتنة منتصب ، يفتن من رآه ويأسره ، ويأخذه إلى وجد وصبابة ، فيعانى السهر والأرق ، ويطيل الحزن والأسف ، ويكثر المناجاة والأنين ، ويكابد الشوق والحرمان ، ويلعق مرارة الصبر الطويل .

ولا شك ان إحكام التجربة فى هذا السياق الغزلي المتفجر بالدلالات والرموز ، لدليل اقتدار فني وموهبة من جهة ، وبصر بأثر الغزل فى التأثير ونقل التجارب الشعورية من جهة أخرى .

ومنذ اللحظة الأولى فى التعبير عن هذه التجربة ــ وكما يتضح لاحقا ــ والى نهايتها ، يتعمق لدى القارئ والسامع بعد المعاناة وأثرها .

٢- قد تتوافر عناصر الكمال للتجربة الشعورية فى عمقها وبعدها ، ثم يوكل إلى التجربة الشعرية أمر نقل هذه التجربة إلى المتلقى قارئا أو سامعا ، وبقدر نجاح هذه التجربة فى النقل والتأثير يتم لدى المتلقى التعرف على شعور المبدع وإحساسه ، والتأثر بهما .

والتأمل فى تجربة الحصري الشعرية يدرك نجاحها الكبير فى كشف معاناته ومدى عمقها وبعدها .

وهذا النجاح إنما تحقق من خلال مجموعة من العناصر الفنيـــة المتلاحمـــة والـــتى سأعرض لها تفصيلا فى المطلب التالى .

## ثانيا- عناصر التجربة الشعرية :

### ١- المعانى والأفكار :

تبدأ المعاني بمناجاة الليل الطويل الذى لايكاد ينقضي ، فتطول بسببه معاناة العاشق الصب الذى يكابد وحده السهر والأرق ، ولا يشركه فيهما إطار النجم فى كبد السماء .

والمعنى الثانى المترتب على هذا المعنى ، هو الكلف والوجد بفتاة لا يملك من رآها إلا أن يكون بها صب مفتون ساهر مؤرق، لما تتمتع به من حسن وجمال ودلال.

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن المعنى التالى يكون مناجاة هذه الفتاة والتضرع إليها ، والشكوى من سوء معاملتها لمن يحبها .

### ٢- العاطفة :

والعاطفة فى إطار هذه المعانى السالفة تبلغ ذروتهـــا حـــرارة وتوهجـــا وتـــدفقا واستمرارية ، لا نجد لها فتورا أو ضعفا أو خبوا فى كل مقطع من مقاطع تلك المقدمة الغزلية .

فما التعبير عن طول الانتظار والضجر بليل بلغ طوله مساحة الحياة كلها والحزن بلغ مداه فى نفس الشاعر حتى رق له النجم وبكى له . والحب بلغ مبلغه حـــتى أن الشاعر يعتذر لمحبوبه فى القتل ، وأن العُوّاد يئسوا من شفائه .

### ٣- الألفاظ :

وهى فى مجملها عذبة حلوة اختيرت بعناية شديدة ، وصيغت فى أماكنـــها بدقـــة وهى من جهة أخرى تواكب التجربة فى معانيها ودلالاتها .

ففى سياق العاطفة نجد تزاحما من ألفاظ تعبر عن هذه العاطفة مثل كلمات : الصب . كلف . أهواه . الشوق . رقّ . العاشق . هواك .

وفى سياق التعبير عن أثر الحب والصبابة نجد كلمات مثل : يرعى . يرصد . سباني . يريق . شرق بالدمع . تنكده .

وفى وصف المحبوبة نجد كلمات مثل : غزال . هيف . سكران اللحظ . تورد خد . جفون .

وهكذا تأتى الألفاظ فى وصف الفتاة ، وفى كل جوانب التعبير الشعري عن التجربة .

وقد استجاب الحصري للفطرة الغزليّة بكلّيته ، فلم ينب بلفظ واحد عن المألوف فى المعجم اللّغوي ، فانسابت المقدمة الغزلية فى كل العصور دون ما حدود حادة أو سدود سادة .

ولا حاجة بنا إلى الاطالة فى وصف الألفاظ فى شعر الحصري عموما وفى المقدمة الغزلية لقصيدة ياليل الصب خصوصا ، حيث يلمس كل قارئ وسامع ما تتحلى به تلك الألفاظ من عذوبة وسلاسة ورقة .

٤- الصور :

إضافة إلى المعانى والألفاظ تعاونت مجموعة من الصور الخيالية فى رسم تجربة الحصري ونقلها ، وتصوير عاطفته تصويرا مؤثرا .

ففى تصوير طول الليل جاء الاستفهام الاستبطائي ( متى غده ) معبرا عن الضجر الشديد ، والانتظار الممل ؛ وجاء الاستفهام التعجبي ( أقيام الساعة موعده ) معبرا عن طول الانتظار الذى كاد يبلغ حد اليأس من فجر الأمل .

ياليل الصب متى غده  أقيام الساعة موعده

والليل رمز للظلام ؛ الذى قد يكون ظلام اليأس ، وظلام الفشل وخيبة الأمل ، وظلام المعاناة وقسوة الحياة .

والاحساس بالظلام فى واقع الحصري الحياتي عميق ، فهو إذا كان عند غيره من الشعراء المبصرين خيال يتبدى فى صورة موج متتابع أو بعير يتمطى ويردف أعجازا وينوء بكلكل كما عند امرئ القيس [٢٤] :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فهو عنده بطبيعة فقد البصر ــ كما سلف ــ خيال فى الصورة واقع فى المصور على صعيد الواقع المباشر ، وعلى صعيد الرمز المتفجر ، والصورة فى مجملها نجحت إلى حد بعيد فى تحديد معالم المعاناة وأبعادها .

وفى التعبير عن مدى الأسى والحزن ، ومايعانيه المحروم من بؤس وشقاء ، تأتى صورة النجم الذى يشارك الساهر مساحة زمن الليل ؛ ولأنه هو الوحيد الذى يشارك الحيارى والسهارى حيرتهم وسهرهم ؛ فإنه قد أشفق عليهم ، ورق لهم، وشاركهم ما يعانون فبكى وتألم

رقد السمار فأرقه أسف للبين يردده

فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده

وصورة النجم الباكى تتبدى فى الخيال المبصر ، الذى يطول سهر صاحبه فيعشو بصره ،ولا تظهر بقعة الضوء فيه واضحة ، إنما تبدو فى شكل أشعة متناثرة يحسبها الخيال المبصر دموعا ؛ فإذا بدت هذه الصورة الرائعة للنجم الباكى عند الحصري

---

[٢٤] – جمهرة أشعار العرب للقرشي صـ ٤٣ ــ دار الميسرة ١٩٨٣م .

الضرير تعبيرا عن مبلغ الأسى والأسف فذلك بلا شك آية اقتدار فنّى، وتجاوز رائع لعاهة فقد البصر .

وصورة الفتاة التى تكاملت جمالا وحسنا وبهاء ، والتى ملكت بجمالها ودلالها وعفتها وطهرها قلب شاعرنا ، وجعلته صبا ؛ تبدو فى صورة غزال أهيف حذر، والغزال بحكم تكوينه الخلْقي جميل ، أكثر الشعراء فى كل العصور من تشبيه المرأة به فى الجمال ، فإذا كان مع هذا التكوين ذى هيف فقد ازداد جمالا إلى جمال ؛ ولايقصد الحصري بوصف الهيف زيادة وصف فى الغزال ، فهو بحكم تكوينه أهيف ، وإنما يقصد أن يعدى الصفة للنص عليها إلى المشبه لا إلى المشبه به ، فقد تكون المرأة كالغزال فى أوجه شبه كثيرة ومع ذلك لا تكون هيفاء، وما يقال فى ذلك يقال فى وصف الحذر :

كلف بغزال ذى هيف  خوف الواشين يشرده

والغزال بهذا الوصف يصعب صيده ، ويعز النوال منه ، ولما كان شأنه كذلك فى الواقع ، فليكن مجال الخيال للتصيد أرحب مجالا ، وأيسر مطلبا

نصبت عيناى له شركا  فى النوم فعز تصيده

والصورة هنا تبرز المعاناة فى ملاحقة المحبوب ومطاردته صحوا ونوما، فإذا كان التشرد يمنع الغزال من الوقوع فى أحبال الصائد وشراكه فإن الأحلام لم تستطع فى النوم ما عجزت عنه الأحبال فى اليقظة ، وما الأحبال والشراك والأحلام إلا وسائل المحب للوصول إلى محبوبه .

وتتابع صور الحسن والجمال فى المحبوب ، فهو فى جمال وحسن آسر كما يأسر الصنم عابده :

صنم للفتنة منتصب  أهواه ولا أتعبده

وما أجمل هذا الاحتراس فى ذيل هذه الصورة البليغة ، التى جسدت الجمال هذا التجسيد الدال !

وصورة يقظ العقل مع مقتضى السكر فى الفم الذى يقطر الخمر ( سكران اللحظ معربده ) تدل دلالة رائعة على جمال الفم والعين ومبلغ تأثيرهما :

صاح والخمر جنى فمه سكران اللحظ معربده

وليس السكر فى العين هو وحده ما يفرز الجمال والتأثير ، فهناك النظرة القاتلة من لحظ ناعس ناعم ، وذلك فى صورة السيف الذى يريق دم العشاق بإغماد النعاس :

ينضو من مقلته سيفا وكأن نعاسايغمده

فيريق دم العشاق به والويل لمن يتقلده

وما أجمل التعبير بالنعاس عن القوة التى تحمل السيف وتعمل على إغماده!! وكيف لا والنعاس فى عيون جميلة يزيد من جمالها ، ويفتك بقلوب المحبين .

وأحسب أن الويل لمن يتغمده هذا السيف من المحبين ، لا من يتقلده كما جاء فى النص ؛ فإن ذلك لا معنى له ــ من وجهة نظرى ــ فى هذا السياق .

وقد جعل الحصري الصبابة المفرطة قتلا ، وقد صور هذا القتل مرة بالدم كما جاء فى البيت السابق ، وكما فى قوله :

يا من جحدت عيناه دمى وعلى خديه تورده

خداك قد اعترفا بدمي فعلام جفونك تجحده

وصوره مرة أخرى بقتل صريح كما فى قوله :

كلا لا ذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده

إنى لأعيذك من قتلى وأظنك لا تتعمده

أما نسبة القتل إلى العينين فذلك لا يكون إلا من شدّه ما فيهما من جمال وأسر ؛ وكم عبر الشعراء عن جمال العيون وفتنتها ، والقتل هنا معناه الوله والصبابة

والوجد ، وهو قتل لذيذ يتمتع به المقتول ويتغنى به على الرغم مما قد يكون فيه من حرمان وسهر وألم .

وأما التعبير عن هذا القتل بالدم ، فإن ذلك مستساغ فى الصورة وفى الواقع، فالمحب الذى يبلغ به الوجد درجة العشق يستشعر حرارة دمه ، وفورة وجدانه، والتهاب مشاعره ، وذلك كله يستحضر معنى الدم الثائر ولونه فى الصورة التعبيرية للدلالة على الحالة الراهنة للصب الوله .

ومن ثم كانت الصورة المقابلة عند المحبوبة هى انطفاء اللون المعبر فى أماكن التعبير : ( العيون والجفون ) مع وجوده فى أماكن الجمال : (الخدود) ففى الأولى انطفاء معبر عن عدم رد الفعل ، وفى الثانية إشراق معبر عن داعى الصبابة والوجد .

ولو أن امرأة تعمدت بجمالها قتل محبيها لكان ذلك آية قبح وسفور ولعب يذرى بها ويسقط من رصيد جمالها وقيمتها فى نظر الناس ، ومن ثم يأتى هذا التعبير الاستدراكى للصور الجمالية المتتابعة سلفا :

إنى لأعيذك من قتلى وأظنك لا تتعمده

وقد ختم الحصرى مقدمته الغزلية بعدد من الأبيات ، فيها مناجاة حزينة، والتياع وشوق ، وفيها كذلك من الصور والجماليات ما عبر بها إلى مشاعر قارئها وسامعها ومن ذلك جعْل الخيال يسعد المحبوب وجعل الوصل دواء للضنى ، ومسببا للكرى ، وجعل الدمع نهرا فياضا يشرق صاحبه ، وجعل الأيام عدوا يفسد على المحبوب القرب والوصل ، وخلال ذلك يظهر الطباق الجميل بين ( يدنيك و تبعده ) والكناية الحلوة عن الخد ( مورّده )

بالله هب المشتاق كرى فلعل خيالك يسعده

ما ضرك لو داويت ضنى صب يدنيك وتبعده

يا أهل الشوق لنا شرق بالدمع يفيض مورده

## ٥- البناء الفني :

اختار الحصري لقصيدته بحرا من البحور الخفيفة ، متساوية التفاعيل سريعة الإيقاع ، جميلة النغم ، عذبة الجرس ؛ وذلك البحر هو المتدارك المكون من ( فاعلن ) أربع مرات فى كل شطر .

وينسب بحر المتدارك إلى الأخفش ؛ لأنه ـ كما يعبر أهل العروض ـ تدارك به على الخليل [٢٥] .

ولا تأتى تفاعيله سالمة فى رأى جمهور العروضيين ، وإنما يصيبها الخبن [٢٦] فتصبح فَعِلُن أو فَعْلن .

وقد أسمى الحصري هذا البحر خببا ، وذلك قوله فى قصيدته :

ما أجود شعري فى خبب والشعر قليل جيده

والخبب فى اللغة متعدد المعاني ، ومنها : ( العدو ) و ( السرعة [٢٧] ) .

وإذا كان العدو كضرب من السير السريع اختبار العدائين فى سباق الوصول إلى هدف ما ، فإن وجه الشبه قائم بين النظم على بحر المتدارك ، وبين العدو ، والحصري كما ألمحت سلفا كان يبغى الوصول السريع من خلال قصيدته ، إلى إزالة أثر الوشاية من نفس ممدوحه الذى كان يخشى بأسه وغضبه.

وبحر المتدارك منسجم الموسيقى ، حلو النغم ، شجى الإيقاع ، يحلو فى الأسماع ، ويطرب القلوب ، فإذا كان كذلك مع رقة نسيب وإشراق معنى ، وعذوبة لفظ ، فقد جمع الحسن من كل أطرافه .

---

[٢٥] ـ موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس صـ١٠٣ ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨م .

[٢٦] ـ الخبن هو من زحافات التفاعيل وهو حذف الحرف الساكن .

[٢٧] ـ لسان العرب مادة : خبب .

أما القافية فى القصيدة فهى دالية مضمومة موصولة بحرف مد متولد من الضمة مما أفسح للنغم لينطلق حرا لعوبا شجيا يأخذ بمجامع القلوب . ويحلق بالنفس فى جو من السعادة والإشراق .

لقد أسهم الحصري فى إحياء هذا البحر الذى هجره كثير من الشعراء[٢٨] ؛ حيث التفت كثير منهم قديما وحديثا إلى قصيدة الحصري بين معجب بها ، ومعارض لها على النحو الذى تتوخاه هذه الدراسة ، وسيظهر بحول الله لاحقا .

---

٢٨ ـ انظر موسيقى الشعر صـ ١٠٦ ـ

# المبحث الثانى

## معارضات الشعراء

## دراسة وموازنة

## وفيه مطلبان

**المطلب الأول** : معارضات القدامى :

١- بدأت معارضات قصيدة ( يا ليل الصب ) باكرة فى تاريخ الشعر العربي فابن خلكان [٢٩] ( ت ٦٨١ هـ ) يذكر أن صاحبه الفقيه نجم الدين موسى بن محمد الكناني القمراوي توفى ( ٦٥١ هـ ) وازن هذه القصيدة بقصيدة مطلعها :

قد مل مريضك عـــوده ورثى لأسيرك حسده
لم يبق جفاك سوى نفـس زفرات الشوق تصعده
هاروت يعنعن فن الســحر إلى عـينيك و يسنده
وإذا أغمدت اللحظ فتكـ ت فكيف و أنت تجرده
كم سهل خدك وجه رضا و الحاجب منك يعقده
ما أشرك فيك القلب فلـم فى نار البحر تخـلده

ومن قبل القمراوي عارض القصيدة ناصح الدين الأرجاني أحمد بن محمد [٣٠] ابن الحسين ( ت ٥٤٤ هـ ) بقصيدة مدح طويلة صدّرها بمقدمة غزلية يقول فيها :

هل أنت بطولك مسعده يا ليل فصـبحك موعده
لا كان قصير الليـل فتى مـيعاد منيّتـه غـده
فى صدرى من كلف بكم جند للشـوق يجـنـده
أعليل اللحظ وعلـتـه منهـا المـتـألم عـوده
عيناك لسفك دمى جنتا فالصـدغ علام تجـعده

إلى أن يقول :

حـران القلب متيمه حـيران الطرف مسهده

---

٢٩- وفيات الأعيان ٣٣٣/٣

٣٠- يا ليل الصب ومعارضاتها صـ ٨١ ـ

ويسلك الشاعر الشامي : ابن مليك الحموي ( ت ٩١٧ هـ ) فى منظومة القدماء من المعارضين لقصيدة الحصري ، وإن كان غير ضارب فى القدم كغيره ممن ذكر سلفا ، وقصيدته فى المدح مصدرة بمقدمة غزلية يقول فيها [٣١] :

لحظ يسبك مقلده أم سيف شاقك مغمده

وقوام زاه معتدل يعتز به أم أملده

رشأ لهلال نسبته يجلو بالشعر تجعده

إلى أن يقول :

هو بدر الحي وغصن نقا وغزال السرب وأغيده

فعلام عليه يعنفني من عنى راح يفنده

تبا لعذول فيه طفى بالعذل وزاد تمرده

٢- لم تكثر معارضات القدامى كمثيلتها عند المحدثين – كما سيأتى – و لعل الصدى القوي الذى أحدثته قصيدة الحصري ، والذى جعلها مشهورة فى الأسماع ، متداولة على الألسنة ، مما جعل المؤرخين والمترجمين يكتفون عند الحديث عنها بعرض بعض من أبياتها [٣٢] – لعل هذا الصدى كان من أقوى الأسباب فى انصراف كثير من الشعراء القدامى عن الإكثار من المعارضة أو الدخول من بابها ، خوفا من فشل المحاولة أمام أنموذج جمع الجمال والحسن من أطرافه.

أما الذين أنسوا من أنفسهم الشجاعة ، ومن شاعريتهم القدرة على المحاكاة والمعارضة وأمنوا عثرات الإبداع ، كما فى النماذج السابقة فماذا كان من شأن معارضاتهم ؟

---

[٣١]- السابق صـ ٤٣ ، ٤٤ ـ .

[٣٢] - وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٣٢/٣ .

٣- كانت الفكرة الرئيسية فى مقدمة الحصري ذات تأثير واضح فى النماذج السابقة فالمعاناة من صبابة بالحبيب وهجره وبعده ، والاعتذار عن هذه الصبابة وما يصاحبها من شوق وحنين ، بما يتمتع به المحبوب من حسن وجمال يصل أحيانا إلى ما فوق مستوى الكمال البشري ، كل ذلك هو ما عبر عنه الحموي قريبا والأرّجانى والقمراوى من قبله .

٤- تتقارب المعانى أحيانا إلى حد التجانس أو التماثل ، وتتباعد أحيانا أخرى فى محاولة الانعتاق من الأنموذج الفذ المهيمن .

فالصب المهجور الساهر الذى طال ليله فتعاطفت معه النجوم فرقّت أو بكت ، معنى ملحوظ عند الحصري، وعلى دربه سار القمراوي ؛ أما ابن مليك الحموي ، فقد عجب من سهره ورقاد محبوبه ؛ وأما الأرجاني فقد تمتع بطول ليله ، وتمنى لليل أن يزداد طولا فعكس المعنى عند غيره ، وهذا مثال لتجانس المعنى وتباعده من وجه.

ومثال آخر فى الشرك الذى ينصبه المحب لينال به محبوبه ؛ فهو متحد بين الحصري وناصح الدين الأرجاني ، وإن كان عند الحصري يشخص فى الأحلام ومطلق من قيد عند معارضه .

وكلما وجد معارض فرصة للتجديد فى المعنى فى إطار النموذج المهيمن فإنه يهتبلها ، فمثلا فى وصف المحبوبة يعبر ابن مليك الحموي عن أثر التحضر فى قوام محبوبته فيصفها بالبدانة والطراوة [٣٣] :

يمشى فيربك له كفلا منه يتألم مقعده

ويكاد إذا ما رام على عجل ليقوم فيقعده

---

٣٣ - السابق صـ ٤٣ - .

وإذا ما شد مناطقـــه  فيريك اللين تشـــدده

٥- تتكرر كثير من ألفاظ الحصري فى المعارضات السابقة ، فى تكرير لعين بعض العبارات ، أو فى توظيف جديد لتلك الألفاظ ، فمن العبارات المكررة مع اختلاف يسير قول الحصري :

... ... ... ... ... .  صب يدنيك و تبعده

وقول الحموي [٣٤] :

... ... ... ... ... .  يدنيه الصب فيبعـــده

وأما الألفاظ الموظفة فى استخدام المعارضين فمنها – مثلا – ( عوده ) فى توظيف القمراوي [٣٥] :

قد مل مريضك عوده  ... ... ... ... ...

حيث كان الحصري يقول :

... ... ... ... ... .  فليبك عليه عـــوده

ومنها ( دمى ) فى توظيف الأرجاني [٣٦] :

ودمى لا يحسن محمله  فى الناس فلم تتقلـــده

حيث كان الحصري يقول :

خداك قد اعترفا بدمى  فعلام جفونك تجحده

٦- ولعل الخيال يتسع له المجال فى نطاق الصورة ليبدع ويجدد ، ويعطى فرصة سانحة للتحرر والانطلاق .

---

[٣٤]- السابق نفس الموضع .

[٣٥]- وفيات الأعيان ٣/٣٣٢ .

[٣٦] - يا ليل الصب ومعارضاتها صـ ٨١ ـ .

ولا شك أن الحصري قد وشى قصيدته بحلي من الصور الرائعة ، غير أن ذلك لم يحل دون إبداع وتجديد فى الصور عند معارضيه القدماء .

والقمراوي [٣٧] فى هذا المجال نافس بقوة من خلال عدد من التشكيلات الخيالية البديعة ؛ منها : ذلك الجفاء الحاد المهلك الذى لم يترك إلا نفسا يتردد فى الصدر أبقاه شوق عارم ذو زفرات ، ومنها أن هاروت لم يشتغل بالسحر إلا ليصبه فى عينى المحبوبة ، ويسنده إليهما ، ومنها أن اللحظ قد تحول بأثر السحر إلى سيف فتاك يقضى على من يغمد فيه وأنه حين الغمد شديد القتل ، وحين التجرد أشد قتلا .

وما أحلاها من صورة ، وما أبدعها على صعيد الواقع ؛ فالقتل وإن كان مهلكا ، إلا أنه باللحظ مستعذب عند الحبيب حين الغمد ، أى حين تتوجه المحبوبة بالنظر إليه ، وهو غير مستعذب حين تشيح بوجهها عنه ، فتخلف الحسرة والحرمان واللهفة .

أما الخلود فى نار الهجر مع التوحيد فى الحب فتلك صورة إيمانية إسلامية عقدية ، وظفها الشاعر هنا ليبرهن على لزوم مقتضاها وهو الوصل ؛ ومعروف أن المرأة بطبيعتها تكره الشركة فى الرجل ، ولا ترضى بالضرّة ، وأن من يخلص لها فى توحدها بحبه يكون أحظى لديها من غيره .

وابن مليك كنى كناية لطيفة عن طراوة جسد صاحبته ولينه بقوله:

وإذا مـــا شد مناطقه فيريك اللين تشدده

على أن المحاكاة فى بعض الأحيان تدفع إلى الإسراف فى استخدام الصور فتلقى عليها ظلال التكلف ؛ ومن ذلك قول ابن مليك فى سياق الشكوى والمعاناة :

لو أشكو مـــا بى منه إلى صخر لتفتت جلمده

---

٣٧ - تراجع أبياته المذكورة فى الحقل ١ من هذا المبحث .

ولو كان فى التعبير من ألفاظ التقريب لقبلت صورة الصخر المتفتت من عناء الحب لو قدّر له الإحساس .

وعلى نفس الشاكلة قوله بعد ذلك :

أوهـــام بـــه جبل لهوى مـــما بالهجر يهدده

ولعل صورة الشوق ذى الجنود التى يجندها الكلف من هذا الباب وذلك فى قول الأرجاني :

فى صدرى من كلف بكم جنـــد للشوق يجنده

٧- على ضوء ما سبق يمكن القول بأن الأصل ظل يحتفظ بحيويته وجدته وطرافته ، على الرغم من معارضته ، ومحاولة التفوق عليه ؛ فالعاطفة فى الأصل المعارض تفوقت دائما ، وسيطرت دائما ومن ثم جاء الأصل نابضا بالحياة من لحظة الانفجار والتوهج حتى لحظة التلاشى والانطفاء ، لم تتكلف فيه الألفاظ والعبارات والصور ، ولم يخرج عن حد التعبير عن تجربة شعورية صادقة .

٨- قديما لم أعثر على محاولة لمعارضة نسائية ، على الرغم من أنى لا أتوقع عدم إعجاب بقصيدة الحصري لدى قطاع عريض من النساء إن لم يكن هذا الإعجاب عند جميعهن ممن سمعنها أو قرأنها ، وكان لديهن حس بمعنى الشعر وأغراضه .

وقد يكون لطبيعة الخطاب فى قصيدة الحصري أثر فى هذا ، ولا سيما فى العصور القديمة ، التى كانت أعرافها تجعل المرأة دائما مطلوبة لا طالبة محبوبة لا محبّة ، تفرض بحسنها وجمالها الكلف بها والهيام والصبابة .

## المطلب الثانى : معارضات المحدثين :

إذا كان التوجس من الإخفاق فى معارضة قصيدة الحصري قديما ؛ كان أحد أهم الأسباب – فى رأيي – فى انصراف جمهرة الشعراء عن المعارضة ، فإن المحدثين منهم

لم يداخلهم هذا الإحساس من جهة ، وكان قدوم النموذج الأصل داعيا إلى تجديده والتذكير به من جهة أخرى ، ومن ثم انطلق كثيرون يحاكون قصيدة الحصـــري فى شكل معارضات تنوعت أحجامها ، وتعددت أغراضها وموضوعاتها وأهدافها .

١- وعلى الرغم من تحليق الصدى فى معظم أرجاء الوطن العربي حديثا ، فإن أجواء العراق كانت أكثر اتساعا لهذا الصدى ، وأكثر طربا له من غيرها.

والمطلع على كتاب المرزوقى والجيلانى فى عرض معارضات قصيدة الحصري يجد عددا كبيرا من شعراء الوطن العربى المعارضين ، ويجد كذلك أن أكثرهم من شعراء العراق ، ومنهم على ترتيب ورودهم فى هذا الكتاب : أبى الهدى الصيادي ( ١٩١٠م ) أحمد حسن الرحيم ( ولد ١٩٢١م ) أنور شاؤول (ولد ١٩٠٤م ) جميل أحمد الكاظمى ( ولد ١٩٠٥م ) جميل صدقى الزهاوى ( ولد ١٨٦٢م ) وغيرهم كثير .

ويبدو ان العراقيين فى العصـــر الحـــديث قد عاشوا معاناة وطنهم متنوعة على الصعيد السياسي والاجتماعي والفكري ، وأنهم وجدوا فى هذا النموذج كإطار وكمحتوى ما يعبّر مجددا عما يعانون فصاغوا فيه خواطرهم ، وعبّروا من خلاله عن توجهاتهم آمنين من خلال دلالة الرمزية فى النموذج الأصل المعارض .

أما شعراء الوطن العربي الآخرين فى الأمصار فمنهم فى مصر : أحمد شوقى ( ت ١٩٣٢م ) وإسماعيل صبرى ( ت ١٩٢٣ م ) وعبد الحميد الرافعى ( ت ١٩٣٢ م ) ومنهم فى الأردن : حسين زايد الكيلانى ( ولد ١٩٣١ م ) وفى سوريّة : خير الدين الزّركلى وفى لبنان : الأمير نسيب أرسلان ( ت ١٩٢٧ م ) وفى تونس : الطاهر القصار ، وفى السودان : محمود عزت المفتى .

والملفت أن يحمل بعض شعراء الوطن العربي أصداء القصيدة إلى أماكن غير عربية ، فشعراء المهجر كرشيد أيوب ، وقيصر المعلوف ، وسعود سماحة ، تغنوا بمعارضات لقصيدة ( يا ليل الصب ) فأسهموا بنصيب مع إخوانهم فى الأمصار العربية فى مجاوبة الصدى .

والملفت كذلك أن نجد الأصداء قويّة رنّانة فى أماكن بعيدة عن منطقة التفجر الأولى ، أى فى غير منطقة المغرب العربي وما بعدها مما وراء البحر المتوسط فى اتجاه الشمال ، وذلك إذا استثنينا منطقة تونس .

ولعل السر فى ذلك يرجع إلى الاكتفاء بالنموذج الأصل والاستغناء به عن المحاكاة والمعارضة .

٢- فكرة النموذج الأصل تنشطر بين عمومية المعاناة فى شكل صبابة ووله، وخصوصيتها من وشاية سعى بها حاقد فى مجلس أمير ، فجاءت قصيدة الحصري بين غزل يستفتح مبدأها وهو أقل عددا فى الأبيات ، ومدح يستغرق جل القصيدة ، والقدماء لم يخرجوا عن هذا الإطار الموضوعي فى معارضاتهم .

أما الشعراء حديثا فإن منهم من سار على فكرة الحصري فى الغزل، أو فيه مع المدح ، ومنهم من خرج عن حدود هذا الرسم إلى نطاق الحياة الاجتماعية فعبر فى معارضته عن الواقع المأساوي الذى يعيشه بنو وطنه ، ومن هؤلاء شاعر عراقي استعار لنفسه اسم ( لقمان ) حيث يقول [٣٨] :

يا ليـــل نجيـــك يجهده بث الشكوى بل يفنده
لكن ما الحـــيلة فى هم ما تفتـــأ أنـــت تجدده
النـــاس يمض نفوسهم فقر كالموت تـــرصده

---

[٣٨] - يا ليل الصب ومعارضاتها صـ ١٤٠، ١٤١ ـ .

فترى المسكين أبا الأطفا ل يحار وقد عجزت يده

الجـوع يـهدد صبيته والـعري تبلح أنكده

فالخبز الأسود مأكلـه و المـاء الآسـن مورده

إلى أن يقول :

نسعى كالنمل ويحزننا ألا نـلـقى ما نقصده

ومنهم من دعا إلى الثورة والتمرد على الواقع السيّ من منطلق خلفية إيمانية تدعو إلى الحق ، وتمجد القيم الأصيلة ، ومن هتلاء الشاعر العراقي: مجيد عبد الحميد ناجي فى معارضة فيها يقول [٣٩] :

اليوم نشيدى أنشـده وبـحمـد الله أردده

هـيا للدرب نـعبده ولصـرح الحق نشيده

ونقيم الحكم علـى الإسلا م يقيم الـكون توقده

بدم الأبطال و عـون اللـ ـه لـذاك المجد نجدده

ومنهم من خاض غمار الحياة السياسية فراح يخاطب الاستعمار الفرنسي فى الوطن الجزائري، ويشيد بالثوّار والمجاهدين الجزائريين [٤٠] :

شـعـب بالحق علت يده أفناك وأنـت تمـدده

من أين وصلت به نـسـبا بالأفك أخذت ترده

أفأرضـك أرض عروبتـه أم دينك فيه محمـده

شعب لـن تـقـهر عزته و جميلة منـه وأحمـده

وإباء الـعـرب ذخيـرته و ضمير العدل يؤيده

---

٣٩ - السابق صـ ١٤٢ ـ .

٤٠ - نفسه صـ ٢١ ـ .

لهوى الأوطان تركت هوى و نأى عن فكرى أغيده
آليت أحارب مغتصبا ليزول الوغد و أعبده
سيعود العز لأمتنا و يحل النصر وسؤدده

وفى عيد الربيع وتفتح الزهور وجمال الطبيعة تغنى الشاعر أحمد خيرى ونشط من خلال نشوته الجمالية ليمدح المصطفى ﷺ فقال [٤١] :

و البحر تبسم رائقه و البر تلألأ جلمده
والمزن ترقرق ناصعها والنبت ترعرع أجرده
والدوح صحا غصنا غصنا وأخضر و أينع أملده
ضحك النوار فغنى النحل وحام و طال ترددده

إلى أن يقول :

دع زائف حسن لا يغنى و به يشقى متقلده
وتغن بحسن لا يفنى و الزمه يحفك سرمده
و امدح من قال الله له قولا ينفيه حسده
سل تعط فأنت وسيلتهم ولعمرك هذى سؤدده
ولد الإحسان و عم البشـ ـر وزان العالم مولده

وهكذا نجد الالتزام بالفكرة الحصرية عند بعض الشعراء ، ونجد التحرر منها عند بعضهم الآخر إما فى تطويرها والسمو بها إلى آفاق أعلى وأرحب كالخروج بالمدح من نطاق الرغبة أو الرهبة فى مدح أفراد البشر إلى مدح رب العزة سبحانه وتعالى، كما عند الشعراء على عقل [٤٢] أو مدح رسول الله ﷺ كما فى الأبيات آنفة الذكر

---

[٤١] – نفسه صـ ٢٢ ، ٢٤ ـ .

[٤٢] – دونت قصيدته الصوفية فى صـ ١١٧ ـ من كتاب : يا ليل الصب ومعارضتها .

، أو فى الانحراف بها إلى موضوعات جديدة كما مر بنا ، فى التجارب الثورية ، أو الاجتماعية أو غيرها مما لم أذكرها خشية الإطالة .

٣- من البدهى أن تستهلك المعانى والألفاظ الواردة فى قصيدة الحصري فى خضم هذا الزخم من المعارضات لقصيدته ، حتى لنجد عبارات بأكملها تعاد مكررة فى كثير من القصائد .

فالليل الطويل الممل ، والغد البعيد المرتقب ، تجده مثلا فى قول أحد الشعراء[٤٣]:

الليل تطاول أســـوده ونأى عن ذى كلف غده

وقول آخر [٤٤] :

أقريب من دنف غده فالليـــل تمـــرد أســـوده

وقول آخر [٤٥] :

الليل وطيفك والذكرى تـــغزو عمرى و تبـــدده

ناديت الفجر على أمل يدنـــو بلقائـــك موعده

وهكذا ، وإن اختلفت العبارة فى تصوير الملل من طول الليل وبعد الفجر .

والحبيب المتدلل ، البعيد المنال ، المتوجس من أعين الرقباء المزدهى بحسنه وجماله معانى نجدها متكررة ، كما فى قول خير الدين الزركلى[٤٦] :

والحسن وأنت محكمه لك يشهد أنك أوحـــده

مضـــناك دلالك أتلفه هـــلا بحـــنانك تنجـــده

رشـــأ سبحان مكونه ما أجمـــل ما صنعت يده

---

٤٣- المرجع السابق صـــ ٢٩ ـــ .

٤٤ - نفسه صـــ ٣٤ ـــ .

٤٥ - نفسه صـــ ٣٩ ـــ .

٤٦ - السابق صـــ ٧٤ ، ٧٥ ـــ .

محـــمر الخد مـــورده مـــسود الفـــرع مجمده
ممشوق القامة أهيفهـــا مـــعســـول الريق مبرده

وكما فى قول الشاذلي طاقة [٤٧]:

عينـــاك الكون و فتنته والخـــد الورد و أعبـــده
والثغر الكوثر أرشفـــه والقلب الصخر و جلمده

والعاشق الساهر المضنى ، من المعانى المكررة . ومنها قول على النيفر[٤٨]:

الجفن هـــــواك يسهـــده من يسعده أو ينجده
والقلـــب يخـــوف راحتـــه شجن بالنفس ترددده
والجسم يذوب عليك جوى ونبا بى الليلة مرقده

وعلى هذا النحو من الرجوع إلى معانى قصيدة الحصري ، وإعادة تصميمها فى عبارات جديدة او شبه جديدة ، نجد الألفاظ المستخدمة عند الحصري تعاد من جديد فى الصياغات المعارضة ، ولا سيما فى نطاق القافية ، ولا حاجة بنا إلى ضرب الأمثلة هنا ، فذلك جلى واضح لكل من يقرأ قصيدة معارضة .

أما العبارات المكررة فمنها :

( فبكاه ورحم عوده ) فى قصيدة على محمد الحائري [٤٩] ( يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده ) فى قصيدة محمد على النيفر[٥٠] وأمثال ذلك لا حصر له فى قصيدة عيسى اسكندر المعلوف [٥١].

لقد تكاملت المعانى عند الحصري فى رسم تجربته ، وهو فى عرض هذه المعانى من خلال بنائية القصيدة ، قد يتوقف طويلا فى بعضها ، وقد يقدم معنى على آخر من وجهة نظر فنية ترى فى التقديم أهمية التأثير والتجاوب مع التشكيل ؛ فمناجاة الليل

---

٤٧ – نفسه صـ ٩٠ ـ .
٤٨ – نفسه صـ ١٢٠ ـ .
٤٩ – صـ ١١٨ ـ .
٥٠ – صـ ١٢٠ ـ .
٥١ – صـ ١٢٢ ـ .

الطويل بشكوى الملل والقلق والانتظار والأسف ، كأن الليل يستجيب لشكوى المهموم ، استهلال الحصري ، قد يشاركه فيه غيره متأثرا به ، وقد يخالفه فيه آخر.

فمن الموافقين حسين الظريفى فى مطلع قصيدته حيث يقول [٥٢] :

يا ليل الصب متى غـــده صوتا ما زلت أردده

الليـــل عليـــــه بموقعه قيـــد ما زال يقيده

ومن المخالفين من غاير هذا المطلع فبدأ بغيره كطاهر العطار الذى استهل قصيدته يشكوى ريب الزمان الذى كدر العقلاء [٥٣] :

ريـــب الأيام سطت يده وفشا فى الكون تمرده

فغدا ذو العقل على كدر مضنى يشقيه تجدده

والاستهلال المغاير هنا مناسب من أول الأمر ليلفت إلى محرك المعاناة عند الشاعر ، وأنه ليس غزلا كما هو مشهور فى الأصل وفى كثير من المعارضات .

وهناك من بدأ بذكر المحبوب و أوصافه ، ثم شكى وبكى من بعد ذلك كأنه إنما يقدم السبب على المسبب ، ومن هؤلاء عبد الحميد الرافعي [٥٤] :

سلطان الحسن و سؤدده لحظ ما فل مهنـــده

عـــباســـي جفنا يزرى بغرار الأبيض أسوده

يرتاع القلب لســـطوته ويكاد الناظر يعبده

أوهى جلد العشاق فما يغنى الولهان تجلـــده

---

٥٢ - صـ ٦٤ ـ .

٥٣ - صـ ٩٤ ـ .

٥٤ - صـ ١٠٠ ـ .

إلى أن يقول :

يا أخت الريم ألا عطف  لمحب طال تسهـــده

والشاعر هنا عناه فى المقام الأول جمال المحبوبة ، وأثر سحرها على قلبه ومشاعره فأطال الوقوف ، وراح يفصح عن متع حسيّة مكشوفة

كثيرا ما أخفاها غيره ، أو أشار إليها من بعيد وذلك قوله :

للثـــغر يزيـــد تعطشـــه  للنـــهد يطـــول تنهـــده

ويهيم لقبلـــة خـــد منـــ  ـــك سبى الألباب تورده

و يكاد يطير علـــى قـــد  فضح الأغصان تـــأوده

ومع هذا التقليد للمعانى أو التوظيف الجديد لها والذى أجلت صورته فى عرض النماج السابقة لانعدم عند كثير من المعارضين معانى مبتكرة ، لا على الإطلاق فى معنى كلمة الابتكار ، ولكن على التقييد بالنظر إلى معانى النموذج الأصل .

ومن ذلك تأدّب أحمد شوقى وتحرج من تصيد طيف المحبوب [٥٥] :

كم مد لطيف من شـــرك  وتأدب لا يتصيده

أما إسماعيل صبرى فقد جعل الشعر شركا يصيد المحبوب وبات الليل يجود فيه وينضدده [٥٦] :

كم صنعت التبر له شركا  وقضيت الليل أنضـــدده

وأشاور شوقى بـــل أدبى  هل أقصر أم أتصيـــــده

وأما عبد الرزاق بستانه فقد عكس معنى الشكوى من الليل فلم تعد من طوله ، وإنما أصبحت من قصره ، حيث حظى بمحبوبتـــه فى

---

[٥٥] – يا ليل الصب ومعارضاتها صـــ ٢٧ ـــ .

[٥٦] – نفسه صـــ ٣٤ ـــ .

وصال مرضي فعبرعن ذلك بقوله [٥٧] :

ليل الهيمان دنا غـــده فكأن الساعة موعـده

عمي العذال فواصلـــه محبوب القلب ومسعده

فشكاه الوجد وباح لـه عـما يلقاه معـمـده

شرح الآلام بلا حـذر لم يخش الواشي يفسده

ومن الطريف أن يعكس الشاعر عبد الرازق محيي الدين معنى الحضارة وطابعها فى معارضته ، فغزاله حضري كامن فى البيوت ، يقف هو على اعتابه ، ويديم طرق بابه ، حتى ضجت الحلقات ، وتطلع السكان من الشرفات [٥٨] :

يا سيـدتى وعلى الأعتـا ب محبك طال تردده

ضجت حلقات الباب له وأرن القفل و موصده

وأطلت مشفقـة شرفا ت الحي عليه تسعده

ومن الطريف أيضا أن يأخذ الشاعر عيسى اسكندر المعلوف كل معانى قصيدة الحصري ، فى بنائها اللفظي مشطرة ، ثم يبنى على كل شطر معانى جديدة على النحو التالى [٥٩] :

( يا ليل الصب متى غده ) فالحـرب يمدك أسوده

و غد بالـويل لـه سمـة ( أقيام الساعة موعده)

( رقد السمـاء فأرقـه ) هـم والويل يجـدده

خوف جوع مرض موت ( أسف للبين يـردده )

---

٥٧ – نفسه صـ ١٠٩ ـ .

٥٨ – السابق صـ ١١١ ـ .

٥٩ – السابق صـ ١٢٢ ـ .

وهكذا ، يوظف الشاعر المعانى القديمة فى دلالات جديدة ، من خلال الومضات الرمزية فى تلك المعانى ، ثم يبنى على تلك الدلالات ما شاء من معانى تخدم تجربته فى المعاناة من الحروب وويلاتها .

ووصف فوزى المعلوف الوحل فى ليلة ممطرة ، يجمع بين وصفه وقصيدة الحصري اشتراك فى المعاناة ، ومغايرة فى الموضوع والفكرة ، أضفى على التعبير معانى جديدة فيها فكاهة [٦٠] :

هل سيل يهدر جارفه أو بحر يزخر مزبده
أم وحل يغطس عابره للرأس وما من ينجده
لم تهمله بلديتنا حاشا حاشا ما أسرده
لكن نصبت فيه شركا لفتى مثلى يتصيده
فكيف عن السهر المضنى ويريح الجسم و يرقده

وبالغ أحمد شوقى فى التعبير عن معنى الحسن والجمال فى المحبوب ، فلم يرض أن يكون محبوبه على نمط بشري تقليدي، وإنما خرج به إلى حد يفوق جمال نبي الله يوسف عليه وعلى نبينا السلام ، بل ويفوق جمال الحور العين فى الجنة ، ونحن لا نوافق على هذه المبالغة الخارجة ؛ يقول [٦١] :

الحسن حلفت ( بيوسفه ) و ( السورة ) أنك مفرده
قد ود جمالك أو قبسا حوراء الخلد و أمرده
و تمنت كل مقطعة يدها لو تبعث تشهده

---

[٦٠] – السابق صـ ١٢٨ –

[٦١] – السابق صـ ٢٧ –

وعلى هذا النمط من التطرف فى المعانى ما يعبر به أنور خليل عن جمال محبوبته ، حيث يعلن عبوديته لمحبوب تقدست صفاته فهو فوق مستوى الكمال البشري [٦٢] :

وعبدت الحسن وخالقـــه ولديك الحسن ومعبـــده

قدست صفاتك فى شعرى ولهجت بذكرك أنشـــده

٤- لم تنحصر معارضات المحدثين فى نطاق الغزل والمدح للوجهاء وذوى البأس والسلطان كما فى النموذج المعارض ، وإنما تعددت الموضوعات والأغراض ، واختلفت مقاصد الشعراء ، حتى اتسع مجال استخدام الرمز ، للتعبير من خلاله عن أغراض ومقاصد غير ما يبدو ظاهرا فى دلالة النص .

وإذا ذهبنا نستعرض الموضوعات والأغراض على نحو ما ورد فى المعارضات نجد بعض الشعراء يتجاوز الغزل والمدح العام إلى مدح الرسول ﷺ كقول الطاهر القصار [٦٣] :

مـــختـــار الله محمـــده و اليوم الأسعد مـــولـــده

وهدى الرحمن هدايتـــه و عماد العزة ســـــؤدده

الزهر به ازدهرت جذلا مذ لاح بـــمكة فرقـــده

بهر الأكوان بطلعـــتـــه فانـــهار الطيـــن و عُبّده

أو الثناء على رب العزة سبحانه كقول الشاعر على عقل [٦٤] :

حبى لسوى الرحمن هو الإ شراك لمـــن أتعـــبـــده

أنا لاسم الله و باسم اللـــ ـــه وفى اسم الله أوحده

---

٦٢ - نفسه صـ ٣٩ ـ .

٦٣ - نفسه صـ ٩٦ ـ .

٦٤ - نفسه صـ ١١٧ ـ .

فيريـــنى العفـــو فـــأعبده ويرينى الفضل فأحمـــده

وعلى نفس الغرض يقول الشاعر عبد الحميد فرج [١٥] :

اللـــــه اللـــــه أرددده بفمى و القلب يمجـــده

وأروم هداه ولم يضلـــل من كان رضاءه مقصده

وبـــحسبى الله و إيمانـــى ما رث الـــعمر أرددده

كذلك نجد بعض الشعراء يفتخر بيوم عيد العلم ، ويشيد به ، كقول البشير العريجى [١٦] :

يوم ســـنـــظل نرددده أبـــدا والدهر يجددده

ويســـجله التـــاريخ لنا بمداد الفخر فنحمده

وهناك من هام فى حب الوطن ، وتغنى بالخندية ، يقول الشاعر حسين الظريفي[١٧]:

وهوى وطنى يجري بدمى هرمـــونا فيه تجـــددده

وأعيش له ما عشـــت به لا أحمد مـــالم يحمده

وطن الأجداد وما ولدوا أنا بعد الخـــالق أعبده

وأجود له بجهود فـــتى لا يعرف جـــهدا يجهده

وفى معارضة كمال الجبوري تتجلى فلسفة الحب ، حيث يقول [١٨] :

الحب تسامى مقـــصده وتـــنزه ربى موجـــــــده

الحب سبيل العبد لمعـــ ـــرفة الخلاق فيـــعبـــده

لولاه لما ذكرت للإنـــ سان الأعمـــال تخـــلـــده

---

[١٥] – نفسه صـــ ١٠٢ ـــ .

[١٦] – نفسه ٤٦ ـــ .

[١٧] – نفسه صـــ ٦٤ ـــ .

[١٨] – نفسه صـــ ١٣٤ ـــ .

ومعنى الروح وسر الكو ن وغزى الفن ومقصـــده

والشاعر مير بصري ينعى على أولئك الذين يتغنون بالحب والصبابة تقليدا ، دون معاناة حقيقية فيقول [٦٩] :

أحـــديث الحب تـــردده تســـتنـــفذه وتجـــدده

وتـــنـــمقـــه وتـــرققـــه وتزوقه وتـــجـــــوده

هل ذقت الحب لعمـــر أم تروى مالم تك تشهـــده

وحظيت الطبيعة الجميلة بمكانة فى معارضة الشعراء ، فهذا أحمد خيري يصف الربيع وتفتح الأزهار ، فى لوحة من الجمال الأخاذ فيقول [٧٠] :

الدهر صفـــا لك أحمـــده والحسن سعى لك أصيده

والـــبحر تبســـم رائـــقه والبـــر تلألأ جـــلمـــده

ضحك النوار فغنى النحـــ ـــل وحـــام وطال تردده

ومن الشعراء من سما بالتجربة إلى نطاق الحياة الاجتماعية ، فراح يشكو مما يعاني منه الناس من فقر وجوع [٧١] فيقول :

يا ليل نجيـّك يجـــهده بث الشكوى بل يـــفـــئده

لكن ما الحيلة فى هـــم ما تفـــتـــأ أنـــت تجـــدده

الناس يمض نفـــوسهم فقر كالمـــوت تـــرصـــده

فترى المسكين أبا الأطـــ ـــفال يحار وقد عجزت يده

الجـــوع يهـــدد صبيته والـــعـــري تبلـــح أنكده

---

٦٩ - نفسه صـــ ١٨٠ ـــ .

٧٠ - نفسه صـــ ٢٢ ـــ .

٧١ - نفسه صـــ ١٤٠ ـــ .

ولم يكن حب الشعر بمنأى عن ساحة المعارضة ، وإنما كان أحد الموضوعات التى عمقها الشعراء بعد أن جاءت عرضا عند الحصري فى قوله :

ما أجود شعري فى خبب و الـشعر قـليل جيـده

لـولاك تساوى بهرجه فى سوق الصرف وعسجده

فالشاعر محمد الخليل يتغنى بالشعر ، ويعلن هيامه به ، وتعلقه بالعمودي منه فيقول[٧٢] :

أنا أهوى الشعر فأنشده و لسان الصب يـردده

فالشعر به يعـلو نسب و لصرح المجد يـشيـده

والشعر إذا يخلو من قا فية لـلـوزن تـقيـده

لايصلح أن يدعى شعرا و شعـور الشاعر يفسده

وهكذا يتسع مجال النموذج المعارض ليفسح للشعراء مجالا للتحرر من هيمنة الموضوع ، والانطلاق إلى كل رحاب تتوالد فيه التجارب وتحـيا.

٥- حفلت معارضات المحدثين – بحكم عوامل التطور الثقافى والحضارى والفكرى – بعديد من الصور التى أفرزها خيال الشعراء ، والتى أثرت أعماق وأبعاد التجربة فى جانبيها الشعورى .

والصور تختلف من شاعر لآخر فى التقليد والابتكار ، وكلما كان الموضوع فى نطاق غير غزلى كان ذلك أدعى إلى التحرر من هيمنة الصورة فى النموذج المعارض ، وتأثيرها النسبي أو الكلي على صور المعارضة .

والواقع أن محاولة رصد جميع الصور فى كم المعارضات الكبير لقصيدة الحصري أمر يعز مطلبه ، ويصعب مناله ، ومع ذلك سأجتهد – بحول الله – فى رسم معالم

---

٧٢- نفسه صـ ١٤٧ ـ .

الصورة فى المعارضات بالقدر الذي يعبر موضوعيا عن ملامح التجديد والتقليد فيها ، ومدى ما كان للنموذج المعارض من سلطان وأثر ، وما كان للمعارضات من فتح آفاق جديدة من العمق الفنى وحس التعليل وجمال التصوير والتمثيل ، والسمو فى الخيال .

أولا- سلطان النموذج المعارض :

١- حفلت مقدمة قصيدة الحصري الغزلية بجملة من الصور التى تضئ معالم التجربة فى المعاناة ، وفى الفتنة بجمال المحبوب ، وفى وصفه ومناجاته واسترحامه .

ولاشك أن مثل هذه الصور مما يثير الإعجاب – كما ألمحت فى التمهيد فى الفرق بين المعارضة والمناقضة – هو أول دواعى المحاكاة والمعارضة عند الشعراء .

والمحاكاة والمعارضة من منطلق الإعجاب الشديد قد تأسر المحاكى والمعارض ، وتدفع به إلى التقليد لبعض أو كل صور النموذج المُعارض .

٢- وهذا نجده محققا عند بعض الشعراء ، ومنهم الشاعر أبو الهدى الصيادي حين راح يصور جمال محبوبته ، فلم ينفك عما جاء فى تصوير الحصري إذ جعل محبوبته ربما فتاك النواظر ، يأسر من يراه ويصبيه [٧٣] :

ربم مـــا أفتك ناظـــره كم قد القلب مهنـــده

و لكم قد ذاب لرؤيتـــه بكاء الطرف مسهـــده

٣- والشاعر أحمد السامرّائي يكرر صورة الجمال القاتل الذى يسفك دماء المحب ، ويشخن جراحه [٧٤] :

يا من بجمالك قد شغفت غيداء الحسن و أغيده

---

[٧٣] – السابق صـــ ٢٠ ـــ .

[٧٤] – نفسه صـــ ٣٥ ـــ .

ما زلت تحاول سفك دمى و إلى السهم تسدده

حتى أثخنت جراح فـــتى دنف يشجيك تنهده

٤- وصورة الليل الطويل الممل يلوكها أنور شاؤل مع انحراف يسير فى تشكيل الصورة يتمثل فى جعل سواد الليل متسمرا ، وفى جعل الغد متناسيا [٧٥] :

الليل تسمر أسوده والصب تناساه غده

٥- واعتراف الخد بالدم ، وإنكار اللحظ ، صورة تملك على بشار الخورى نفسه ، فلا يجد انفلاتا من التأثر بها فى قوله [٧٦] :

مولاتى وخدك معترف بدمى واللحظ يؤيده

فعلام ولى حق بدمى إن أدن اهتز مهنده

٦- وصنم الفتنة فى الجمال محبوب يغري ويفتن ، حتى ليكاد يعبد ، صورة أخرى عبر بها الحصري عن مدى صبابته ، فتأثر بها عدد من الشعراء منهم الشاعر رشيد أيوب ، الذى كاد يجعل حبه ركنا ومحبوبه إلاها فى هذه المناجاة الضارعة [٧٧] :

يا من أوشكت أحج له وكربّ الكعبة أعبده

٧- أما المحب الذى أضناه حبه وأهزله ، ولم يبق له رمق ، حتى رق له الحساد ، وملّه العواد ، وبكاه الرواد فتعجب عدد من الشعراء ، منهم الشاعر نسيب أرسلان ، فقد جعل الضلوع مرقدا للكمد الذى أنهك جسمه [٧٨] :

مضنـــاك عصاه تجلده هل أنت بعطفك منجده

---

٧٥ - نفسه صـ ٤١ ـ .

٧٦ - نفسه صـ ٤٥ ـ .

٧٧ - نفسه صـ ٧٨ ـ .

٧٨ - نفسه صـ ٨٥ ـ .

منهوك الجسم به كمد أحفاء الأضلـــع مرقده

ثانيا – التحرر والابتكار :

١ – وأولى ما يلاحظ فى هذا الشأن ما رآه أبو القاسم الشابي فى أمسه ويومه ، من متعة الحب ، وروعة العشق وجمال الهيام بالحبيب ، فانطلق يرسم مجموعة من الصور البهيجة الراقصة ، المعبرة عن نشوته ونشاطه ، وأمله فى سعادة دائمة ؛ فالأمس يغنى ويطرب ، والحاضر يشجى ، والقلب وديع حالم ، والحبيب مَلَكٌ جميل الطلعة ، يأسر الرائي فلا يملك إلا مناجاته فى الليل وتمجيده فى النهار ، والتغنى باسمه فى أسمى الأماكن ؛ إلى آخر ما هنالك من صور جميلة مبتكرة كالليل الذى يضاحك ، والنسيم الذى يطارد والورد الذى يداعب ، وكلها ترسم لوحة البهجة والسعادة ، والسرور والغبطة بحب وحبيب [٧٩] :

غـــناه الأمس وأطـــربه وشجاه اليوم فـــما غده

قد كان له قلب كالطفـــ ـــل يد الأحلام تهدهده

مذ كان له ملك فى الكو ن جمـــيل الطلعة يعبده

فى جوف الليل ينـــاجيه و أمام الفجـــر يمجده

وعلى الهضبات يغنيـــه آيات الحمد و ينـــشده

ونجوم الليل تضاحكه و نسيم الـــغاب يطارده

و يخال الورد يداعبه فـــرحا فتعـــابثه يـــده

لقد تحولت لوحة الحياة من خلال صور الشابى إلى مشهد جميل فتان ساهمت بلا شك فى رسم خطوطه وألوانه وظلاله وأبعاده نفس عاشق ملك الحب عليه نفسه فرأى فى الحياة كل شئ جميل ، ولما تذكر الغد وما قد يتوقع فيه من خيبة الأمل

---

[٧٩] – نفسه صـــ ١٨ ، ١٩ ـــ .

انطفأت فى نفسه شموع الأمل ، وخيم الظلام على خياله فاستحضر صورة الأيام النكدات ، وصورة العاهر الفاجرة ، والعاشق الذى يتلو مراثيه فى الغاب ، وليل الوحشة ، وكهف الوحدة إلخ ... :

يا للأيام فكم ســرّت  قلبا فى الناس لتــكمده
هى مثل العاهر عاشقها  تسقيه الخــمر و تطــرده
يتلو فى الغاب مــراثيه  وجذوع السرو تسانــده
فى ليل الوحشة مسراه  وبكهف الوحدة مرقــده

وما أجمل أن يكون الأمل شفقا يضئ جوانب النفس التى هى كون الإنسان ، وما أصعب أن يكون اليأس ظلا ما موحشا يبدد البهجة والسعادة :

بالأمس له شفق فى الكو  ن يضئ الأفق تــــورده
واليوم لقد غشاه الليــ  ــل فمن فى العالم يسعده
غنــاه الأمس و أطربه  وشجــاه اليوم فما غده

٢- وفى معارضة الشاعر أنور خيري تتناغم مجموعة من الصور فى رسم لوحة للطبيعة الجميلة فى فصل الربيع ، فالبحر يتبسم ، والبر تلألأ جلمده ، والدوح تصحو أغصانه ، والنوار يضحك ، والنحل يغنى ... إلخ [٨٠] :

البــحر تبــسم رائقــه  و البــر تلألأ جلمــده
والدوح صحا غصنا غصنا  و اخضر أينع أملــده
ضحك النوار فغنى النحــ  ــل وحام وطال تردده

وتلك الصور لا تعكس جمال الطبيعة فحسب ، ، وإنما تعكس فضلا عن ذلك أثرها الجميل فى النفس ، ووقعها الطيب على الحس والشعور ، مما يحلق بالخيال فى آفاق من المتعة والبهجة .

---

٨٠ - نفسه صـ ٢٢ ـ .

٣- وفى معارضة الشاعر إسماعيل صبرى تتغير صورة الشرك الذى كان عند الحصري مجسدا فى نوم وتخيل ، ليتجسد فى صورة أخرى حية وحيوية هى فى مجملها شعر ذهبي منضد ، صنع على أجود مثال [٨١] :

كم صغت التبر له شركا وقضيت الليل أنضـــده

وأشاور شوقى بل أدبـــى هل أقصر أم أتصيـــده

والمحبوب على هذا النحو يتذوق الشعر ، ويحسن تقديره .

٤- وإذا كان الحصري اعتبر النظرات من المحبوب قتلا ، علامته الدم فى الخدود ، واعتذر لمحبوبته عن هذا القتل بأنه غير متعمد ، فإن الشاعر أنور خليل تسيطر عليه روح الأثرة فيتعجب فى شبه إنكار أن يموت شهيد الحب ، ويحظى غيره بما يهوى [٨٢] :

أأموت فداك شهيد هوى و أقول لقد سلمت يده

و يفوز سواى بما يـــهوى يسقيه الكوثر أغيده

٥- ورسم بشارة الخورى صورة جمال المحبوبة ، وصورة للصبابة الدائمة وأخرى للأسف والحزن والحسرة [٨٣] ، فعكس فى الأولى ما تعارف عليه الناس من وصف المرأة وتشبيهها بالبدر ، حيث جعلها أختا له يفتخر هو بهذه الرابطة :

يا أخت البدر ودا شـــرف لأخيك فمن لا يحسده

وفى الثانية لم يقصر صبابته وقلقه على زمن للسكن وهو الليل كما صنع كثير من الشعراء ، وإنما تعدى الليل إلى النهار فى مقابلة بين الطى والنشر ، حيث يقول:

دنف تطويـــــه ليـــلتـــه بهواك و ينشره غـــده

---

[٨١] - السابق صـ ٣٤ ـ .

[٨٢] - نفسه صـ ٤٠ ـ .

[٨٣] - نفسه صـ ٤٥ ـ .

أما الثالثة ففيها بكاء الليل أسفا على صب مؤرق ، وجديدها فى جعل الدموع جمرا يتساقط ، وهنا روعة الخيال فى توظيف الشهب المتساقطة التى عبر عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ ﴾[٨٤] .

٦- وكان الشاعر تركى كاظم جودة جريئا فى حبه إلى حد الانطلاق السافر عن إعلان هذا الحب فى شعره ، وما له من أثر فى حياته ، ومن ثم جعل للكون ساقا فأقامه وأقعده فى صورة تعبر عن ضجة فى الإعلان ورغبة فى التصدى لكل معارض أو كاشح على حد تعبيره[٨٥]:

بـــديع الشعـــر أردده وبرغم الكاشح أنشده

ولسوف أقيم الكون على ســـاقيه إليه و أقعده

وقد أبدع الشاعر فى التعبير عن سهره وتسهده ، باستحضار صورة مصباحه الذى خبا ضوءه فجف توقده :

وسراج الزيت على مهل يخبو فيجف توقـــده

والجفاف لا يكون إلا لمائع وسائل ، واستعارته للتوقد فى هذه الصورة يدل على انخفاض تدريجى للضوء يعكس بدوره بطء مرور الزمن ، ومراقبة الساهر فى قلق لصبح الأمل .

٧- وللشاعر حكمة البدرى إبداعات فى صور معارضته[٨٦] منها تثاؤب النجم ، مما يعكس طول السهر :

---

٨٤ - سورة الصافات .

٨٥ - السابق صـ ٤٧ ـ .

٨٦ - نفسه صـ ٦٦ ـ .

ما زال الليل ينادمـــنى والليل تثاءب فرقـــده

ومنها تلألؤ مهند الفجر من فوق الديجور :

وإذا ما الفجر تلألأ من فوق الديجور مهنـــده

ولا شك أن خيط الفجر حينما يصبح مهندا ، فإن الخوف والحذر يتبادران إلى نفس الشاعر من كشف أمره ، وافتضاح خبره .

وما أجمل التعبيرعن التمايل والترنح من نشوة الحب ، وسكر الصبابة بقوله :

إن ملت فصدره يسندنى أو مال فصدرى يسنده

ولعل من أجمل الصور صورة النجم الذى بدا كمصباح الغرباء خافت الضوء شارده فى ليل القلق والحيرة . يقول محيى الدين خيرى [٨٧]:

ليلى أرق وسواى ينـــا م الليل فنجمى أرصده

يتراءى كمصباح الغربا ء ضئيل النور مشرده

وكذلك النجم الساطع فى ثغر المحبوبة ، والليل الكامن فى شعرها عند الشاعر بشارة الخورى [٨٨]:

النجم بثغرك أرصـــده و الليل بشعرك أعبده

وهكذا يطول بنا الحديث إذا ما أخذنا فى استعراض معارضات الشعراء المحدثين ، والتعرض لما فيها من صور جديدة ، فيها طرافة وابتكار وتوظيف.

ومجمل القول أن كثيرا ممن عارض قصيدة الحصري ، قد وجد فرصة سانحة جاد بها الخيال فى ابتكار الصور وتوظيفها فى نطاق المعارضة بقصيدة الحصري، وأن ذلك أثرى التجارب ، وأضفى عليها حيوية وفاعلية ، وخصوصا فى نطاق التحرر من الفكرة الغزلية أو بعيدا عن غرض المدح لذوى السلطان والبأس .

---

٨٧ - نفسه صـ ١٦٦ ـ .

٨٨- نفسه صـ ٤٥ ـ .

٨- فى كل المعارضات لم يخرج أحد من الشعراء عن قافية قصيدة الحصري، ولا رويها الموصول به الضمير الموصول بحرف المد ، ولا بحرها المتدارك.

غير أن هذا المجال قد اتسع لتجديدات فى البناء تمثلت فى عدة أشكال جميلة

وأولى هذه التجديدات ما جاء به عيسى اسكندر المعلوف فى وصف الحرب العالمية ، فقد أخذ قصيدة الحصري بأكملها ، غير أنه أدخل بين الشطر الأول والثانى من كل بيت فى تلك القصيدة شطرا ثانيا وثالثا على هذا النحو [٨٩] :

( يا ليل الصب متى غده ) فالحـرب يمدك أسوده

و غد بالـويل لـه سمـة ( أقيام الساعة موعده)

( رقد السمـاء فأرقـه ) هـم والويل يجـدده

خوف جوع مرض موت ( أسف للبين يـردده )

ولا شك أن هذه التجديدات قد أتاحت فرصة لعرض معان جديدة، مع توظيف المعانى القديمة فى قصيدة الحصري لخدمة هذه المعانى ، وتعميقها .

ومما يقرب من هذه المحاولة فى تجديد البناء ما جاء به الشاعر محمد أسعد ولاية فى معارضته ، فقد خمس الأشطار ، مع توحدها فى كل المقاطع ، ومع استعارة الشطر الأول والثالث من قصيدة الحصري لخدمة وتعميق المعانى فى الأشطار الثانى والرابع والخامس هكذا [٩٠] :

يـا ليل الصب متى غـده أيطول الهجر و يبعـده

رقـد السـمـار فـأرقـه بعد المحبوب و شـرده

والصبر محاه غرده

وهناك من الشعراء من حاول التجديد فى إطار تناسق الأفكار وتوحد الموضوع فعالج البناء على هذا الارتكاز ، ومن أمثلة ذلك ما جاء به الشاعر أحمد حسن

---

٨٩- السابق صـ ١٢٢ ـ .

٩٠ - السابق صـ ١٤٥ ـ .

إبراهيم فى معارضته التى خاطب فيها الاستعمار الفرنسي فى الجزائر فقد خاطب الاستعمار منددا به فى مقطع أول من المعارضة قائلا [٩١] :

شـــعـــب بالحق علت يده أفناك و أنـــت تهـــدده
من أين وصلت به نـــســـبا بالأفك أخذت ترددده
أفأرضـــك أرض عروبتـــه أم دينك فيه محمـــده

وفى مقطع ثان منها يقول مشيدا بالشعب الجزائرى :

شعب لـــن تـــقـــهر عزته و جميلة منـــه و أحمـــده
وإباء الـــعـــرب ذخيـــرته و ضمير العدل يؤيده

وإذا كانت الفكرة هنا قد حددت الإطار والبناء فى مجالي التنديد بالمستعمِر والإشادة بالمستعمَر ، فإننا نجد فى بعض المعارضات الطويلة مجالا أرحب لتناسق البناء تبعا لتناسق وتحديد الأفكار كما فى معارضة خضر الطائي [٩٢] ؛ فقد عبر فى المقطع الأول عن جمال محبوبته وماتركه هذا الجمال فى نفسه من صبابة ووله ، وما يعانى منه من أسف وحرمان .

وفى المقطع الثاني – الذى ربطه بالأول ذلك النداء الحبيب إلى نفـــسه ( حسناء) والذى جمع بين المقاطع كلها بهذا البدء الجميل – أخبر عن تغنيه بسحر المحبوب وطرب الطير بهذا التغنى ، وشجوه لما يلاقى مـــن شوق ولهفة وقلق .

وفى المقطع الثالث نعى على العذال ما يلاقيه من لوم وعتاب .

---

[٩١] – السابق صـــ ٢١ ـــ .

[٩٢] – نفسه صـــ ٧١-٧٣ ـــ . وتنظر المقاطع فى صفحاتها خشية الإطالة .

# المبحث الثالث

## معارضات الشاعرات

وفيه ثلاثة مطالب

لم تأت معارضات الشاعرات على نحو ما أتت به معارضات الشعراء من الوفرة والكثرة ، فلم يرصد لهن إلا القليل فى هذا المجال ، وعلى ضوء من هذا القليل المرصود ، يمكن استخلاص بعض معالم تلك المعارضات .

**المطلب الأول** : خصوصية التجربة :

التجربة الحصرية فى جانبها الخاص ، تترجم قصة عشق وصبابة وفتنة بامرأة فاقت حد الكمال البشري فى الحسن والجمال ، مما أفرز شغفا بها وتطلعا إلى وصالها ، وتقربا إليها بكل الوسائل ، وتأسفا على ما يفوت العاشق الوله من عدم تحقق هذا القرب ، إلخ .. ما بدا واضحا من قراءة المقدمة الغزلية فى قصيدة الحصري .

والأمر فى مثل هذه التجربة طبيعي مألوف ، درج عليه الشعراء منذ قديم من العصور ؛ فكم ردد الشعراء فى قصائدهم حديثا عن صبابتهم وحبهم ، وتعلقهم بحبيب مثال فى الجمال ــ من وجهة نظرهم ــ وما يكون من هذا الحبيب من صد ونأى وتمنع وتدلل .

ووضوح هذا الأمر ، وشهرة وروده فى دواوين الشعراء يُغنى عن ضرب المثال له .

أما أن تفصح المرأة عن حب لها مع حبيب ، أو تصرح بهيام وعشق وشوق ، أو تكشف عن قلق وسهر وحرمان ، وتشكو من صد ونأي ونكران ، فإن ذلك قد يكون بعيدا عما ينبغى أن تكون عليه من عفة وصيانة وتمنع ، فهي أن تكون مطلوبة أولى لها من أن تكون طالبة .

لقد عِيب[٩٣] على عمر بن أبي ربيعة أن يجعل محبوبته تطلبه ، وتبحث عن لقاء حميم معه ، وذلك فى قوله :

ثم استطيرت تشتد فى أثرى  تسأل أهل الطواف عن عمر[٩٤]

---

٩٣ ــ انظر الأغانى ١٦/١٩ .طبعة الساسي .

فقد كان ينبغى له أن يعبر عن هيامه هوىها ، وتعقب أثرها ، والبحث عنها ، فذلك يعلى من شأنها ، ويرفع من قدرها .

وإذا كان الأمر على هذا النحو فى الأعراف الاجتماعية ةالأدبية ، فمن باب أولى أن يكون من غير اللائق بالمرأة أن تتحدث هى عن عشق وصبابة ، وأشواق وهيام.

والتجربة على الصعيد الشعورى لا يمنع من حدوثها مانع ، ولايحول دون تحققها حاجز ، ولافرق فى ذلك بين رجل وامرأة .

وقد تخرج التجربة الشعورية عن حد التعقل والانضباط ، وذلك فى حالت خاصة تفقد فيها المرأة سيطرتها على لسانها وسلوكها ، فتنفلت من كل الأعراف والضوابط ، غير آبهة بها ، تحت تأثير الفتنة الطاغية برجل يبلغ فى الوسامة مبلغا يصل إلى حد تأثير السحر .

وقد حكى القرآن تجربة امرأة العزيز مع نبي الله يوسف عليه وعلى نبينا السلام ، فقد خرجت من حد التجربة الشعورية فى الصبابة بيوسف عليه السلام إلى نطاق سلوكى محموم لم تملك معه سيطرة ولا انضباطاً ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ..إلخ ﴾ [٩٥] .

وفى الواقع المعاصر تجرأت الشاعرة عاتكة الخزرجى فى التعبير عن تجربتها فى الحب والصبابة ، على نحو ما عُهد فى معارضات الشعراء ، ولم تر خصوصية للرجال فى هذا الشأن ، فتكلمت بمثل ما تكلموا به ، وخاضت فى مثل ما خاضوا فيه ، وعبّرت عن معاناتها كما عانوا [٩٦] :

يفنى المشتاق و تجحده ويرجى الوعد وتوعده

---

[٩٤] – ديوان عمر بن أبي ربيعة صـ ١٩٨ ـ دار الكتاب العربي ١٩٩٢م .

[٩٥] – الآيات سورة يوسف رقم ( ٢٤-٣٢ ) .

[٩٦] – ياليل الصب ومعارضاتها صـ ٩٨، ٩٩ ـ .

أكذاك الحب قضى أبدا أن يضنى المولى سيده
أســراك تشكى ضارعة وقتيــلك ذاك أتنجده
قســمابالحــب و دولته قســم بالله أؤكــده
عيناك أصابت من كبدي مرمى قد عز تــضمده

إلى أن تقول :

أهــــواه و لولا مبدعه لجهــــرت بأنى أعبده

أتحكى عاتكة عن تجربة حقيقية . أم تحاكى الشعراء فى تجاربهم قانعة بالصدق الفنى ؟ هى على كل حال تخوض فى ميدان جديد ، وتتجرأ على قول قد لايكون فى كــثير من الأحيان مرضيا من مثلها .

والشاعرة أمينة عباس لم تر حرجا من اقتحام هذا المجال ، فراحت تعبر عن تجربة لها فى الحب ، غير آبهة بما قد يكون عليها من قيود وحرج فى التعبير ، غــير أنهــا لم تقترب كل القرب من حرية التعبير كما وجدنا سلفا عند الشاعرة عاتكة الخزرجى ، وإنما تحفظت بعض التحفظ فى تجربتها الشعرية ، فلم تظهر تمالكا فى الوجد ، ولا افتتانا بالحسن وإنما هى تناجى حبيبا . وتتشوق إليه ، وتتلهف للقائه ، وتتألم لبعده ، وتحن إلى سالف أيامه ، وتلوك الذكرى فى لذة مشوبة بحزن وأسف :

يا فرد الحسن و أوحده هل أنت لقلبى مسعده [٩٧]
قد طال الشوق ولم ينفد فى قــلبى معنى أنشده
مضناك اليوم على خطر مــاذا يجديك تنهده

إلى أن تقول :

فارحم مضناك فلا أمل إلا إن شــئت تجدده

---

[٩٧]- السابق صـ ٣٨ ـ .

أما الشاعرة زينب عبد السلام فقد كانت أقرب إلى طبيعة المرأة فى معارضتها فتجربتها حزينة،تدور فى نطاق رثاء الشاعر اسماعيل صبرى شقيق جدها ، تقول[٩٨]:

الحزن بقلبى معهده وضناى ضلوعى مرقده
والبين حليفي من صغرى وقديما كنت أكابده
لم يبق الدهر على ثكلى ما يصلح إلا أفسده
و نعى الناعى فذهلت له ويح الناعى ما أنكده

إلى أن تقول :

أبنات الجد ونجليه الصبر رداء نحمده

## المطلب الثانى : نمط المعاناة .

فى المعارضات النسائية التى مرت بنا آنفا ، نجد معاناة وهما وحزنا ومكابدة ، غير أن كل تجربة تعبر بخصوصية صاحبتها عن نمط من المعاناة يختلف قليلا أو كثيرا ، فالشاعرة عاتكة الخزرجي ، وصلت إلى درجة العبودية فى حب صاحبها:

أهواه ولولا مبدعه لجهرت بأنى أعبده

ومن ثم فهى تعانى الشوق ، وترجى الوعد ، وتستشعر الضنى ، وتستلذ الموالاة، وتستطيب الأسر ، وتعلن أثر الحب فى نفسها ، وما تكبدته من جرائه ، وما تكلفته من شكوى وأنين ، وتضرع ومناجاة ؛ وهذه بعض أبيات من معارضتها، توضح أبعاد المعاناة وعمقها :

قسما بالحب و دولته قسم بالله أؤكده
عيناك أصابت من كبدي مرمى قد عز مضمده
لم تبق بها إلا نفسا لا تقوى اليوم تصعده

---

٩٨ – السابق صـ ٧٩ ـ .

وهذه الأبيات ، وما ورد سابقا أولاحقا لها فى المعارضة ، لا تعبر عن معاناة خاصة تتميز بها المرأة فى تجربة حب مرت بها ، فكل ما هو مطروح فى أبعاج تلك المعاناة مر مثله كثيرا فى معارضات الشعراء .

فإذا انتقلنا إلى معارضة الشاعرة أمينة عباس ، نجد معاناتها تتمثل فى شقاء قلبها وضناه من طول الشوق إلى حبيب مفارق هاجر ، تعيش على ذكرى أيامه الجميلة ، وتتمنى أن يعود لها سالف تلك اللحظات الجميلة التى عاشتها فى وئام ووفاق ، وهذه الأبيات تعبر عن معاناة الشوق وروعة الذكرى ، وأمل التجدد:

يا فرد الحسن و أوحده هل أنت لقلبى مسعده
قد طال الشوق ولم ينفد فى قلبى معنى أنشده
مضناك اليوم على خطر ماذا يجديك تنهده
الذكرى تؤلمه أبدا والليل جفاه أسوده
كم كنا نمرح فى الماضي ما أحلى الأمس وأسعده

وطبيعة هذه المعاناة تقترب من عاطفة المرأة ، أقرب من اقترابها من عاطفة الرجل ، فالمرأة كثيرة الشوق ، رقيقة المشاعر ، تهزها الذكرى الجميلة ، وتثيرها اللقاءات الحميمة ، وتستوقفها الأيام الحلوة ، والليالي الحالمة ، فإذا عبرت عن معاناة فى هذا الإطار ، إنما تعبر بلسان بنات جنسها ممن هن على صعيد مثل هذه التجربة .

أما الشاعرة زينب عبدالسلام فقد صبت معارضتها فى معاناة الحزن لفقد الشاعر الكبير ، جدها اسماعيل صبري ، فراحت ترثيه معبرة عن لوعتها وأسفها وحزنها فى تجربة يشترك فيها الرجال والنساء ، ولكنها عند المرأة – بحكم رقة العاطفة لديها – تكون متوهجة قوية ، وهى كذلك هنا ؛ فمن أبيات الشاعرة فى رثاء جدها تقول :

الحزن بقلبى معهده وضناى ضلوعى مرقده

# الخاتمـــة

على ضوء ما تقدم فى هذا البحث من تمهيد وأبواب وفصول ومباحـــث، يمكـــن استخلاص بعض النتائج والملاحظات .

**أولا** – فيما يتعلق بالقصيدة الرائعة ( يا ليل الصب ) للحصري القيرواني تبين لنـــا كيف لفتت هذه القصيدة أنظار القرّاء والمستمعين، واستحوذت علـــى إعجـــابهم ، وكيف بلغت من الشهرة مبلغا جعل المؤرخين القدامى لا يعرجون على سرد أبياتها فى مجال الخبر عن صاحبها ، أو من عارضه مـــن الشـــعراء ، اســـتغناء بشـــهرتها، وترددها على الألسنة .

كما أن المحدثين من الشعراء بلغ بهم اللإعجاب حدا جعلـــهم يتخـــذونها مثـــالا يحتذى ، ومنوالا يحاك عليه ، ومنهجا يتبع فى عرض التجارب من جهـــة أخـــرى ، وعلى تحليل تلك القصيدة ، تبين كيف بلغت هذه القصيدة مبلغا من الجمال ، جعل الشعراء يتسابقون فى الوصول إلى مثله أو قريب من مثله .

وجمال القصيدة هذه ، إنما جاء من عدة روافد معنوية وفنية كما سبق فى عرضها وتحليلها .

**ثانيا** – فيما يتعلق بالمعارضات تبين كم هذه المعروضات ، ممـــا يعكـــس الأثـــر والصدى الكبيرين لقصيدة الحصري .

وتبين كذلك الأثر الفني لهذا الصدى الذى تردد فى أرجاء الوطن العربي وخارجه.

ولا شك أن ذلك قد أحدث ثراء فنيا للمعانى والأفكار ، والألفاظ والعبـــارات ، والصور الفنية ، وأطلق العنان للشعراء فى ساحة الابتكار والتجديد.

غير أننا لاحظنا بعض الشعراء ينفلت من بعض الضوابط الدينية أو الأخلاقية، أو غيرها ، تحت سلطان الإعجاب الطاغى ، أو حرارة العاطفة أو هيمة الخيال ، فيأتى

و البين حليفي من صغرى وقـديما كنت أكابده
والنار تمشت فى كبـدي والجفن أطـال تسهده
لم يبق الدهر على ثكلى ما يصلح إلا أفسـده
و نعى الناعى فذهلت له ويح الناعى ما أنكده

إذاً هناك رابط يربط معارضات النساء بالنموذج الأصل ، هـو المعانـاة ، وإن اختلفت هذه المعاناة من شاعرة لأخرى بحكم طبيعة التجربة وخصوصيتها لدى كل واحدة منهن .

**المطلب الثالث** : البناء المهيمـن .

لم يـكن الرابط بين معارضات النساء والنموذج المعارض ما بدا سلفا مـن محاولة الاقتراب من التجربة الرجالية فى الصبابة والشكوى ، أو إظهار المعاناة ، وإنما يبدو واضحا أن الاعجاب بالشكل البنائي للقصيدة الحصرية ، كان هو الأصـل فى تلك المعارضات فلم نلمح – بقدر الاجتهاد – محاولة نسائية فى تجديد فى المعـانى أو الصور ، أو حتى فى تجديد هذا الشكل البنائي .

فهل تلك قناعة بأن النموذج المعارض ، قد احتوى كل شئ ، وأنه لا فرصة لمزيد على ما جاء فيه ؟ أو أن الرغبة كانت فقط منحصرة فى مجال القدرة على المعارضـة والإتيان بما يستطيع أن يأتى به الشعراء ؟

بمعانى أو ألفاظ أو عبارات أو صور قد تخرج به عن حد الاعتـــدال ، أو القبـــول ، كما فى معارضة الشاذلى طاقة ، والتى صرح فيها بأنه يعبد الورد ، ولم يحترس كمـــا جاء عند الحصرى ( أهواه ولا أتعبده ) .

وكما فى معارضة أحمد شوقى الذى جعل حسن محبوبته يفوق جمال الحور العين فى الجنة ، ومعارضة أنور خليل الذى قدس صفات محبوبه .

وأخيرا ، نجد بعض الشعراء المعاصرين – ومن كثرة استهلاك المعـــانى والألفـــاظ والأخيلة والصور – يكرر بعضهم ألفاظ أو عبـــارات أو صـــور بعـــض كمـــا فى معارضتى حسين الظريفى ، وخضر عباس الصالحى .

فالأول أتى بصورة النجم المقيد فى قوله :

النجم عليه بموقعـــه  قيد ما زال يقيـــده

والثانى يقول :

ما زال الخافق يجمع بى  شوقا والغل يقيده

وعلى كل حال فقد اجتهد كثير من الشعراء فى التفوق على النموذج الأصـــل المعتمد فى المعارضة ، وهو قصيدة الحصري ، حتى بلغ بعضهم شأوا بليغا فى هـــذا المقام ، وأتى بما حمل بعض الملحنين والمغنين على توقيع المعارضة ، والشـــدو بهـــا ، كقصيدة الشاعر الكبير أحمد شوقى ، ولكن الذائقة الشعرية ، لا تزال تنحنى إعجابا أمام النص المعارَض ، ولا تجد بديلا يعتليه ككـــل ، وإن كانـــت تجـــد فى بعـــض المعارضات أجزاء تستوقف الإعجاب ، وتحمل على الإطراء.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى اللهم على نبينا محمـــد وآله وصحبه أجمعين .

# ملحـــق أ

## بأسماء الشعراء الذين ورد الاستشهاد من معارضاتهم فى ثنايا البحث

١- أحمـد حسـين الرحيم .... شاعر عراقي ولد سنة ١٩١٢م

٢- أحمد خيري .... أحد الشعراء المعاصرين

٣- أحمـد شـوقـى .... أميـر الشعراء المصري توفى سنة ١٩٣٢م

٤- أحمد بن محمد بن الحسن الملقب بناصح الدين .... شاعر ارّجانى قـديم توفى سنة ٥٤٤هـ

٥- إسماعيل صبرى .... شـاعر مصري معـاصر توفى سنة ١٩٢٣م

٦- أنـور خـلـيـل .... شـاعـر عـراقي ولد سنة ١٩١٦م

٧- أنـور شـاؤل .... شاعـر عـراقي ولد سنة ١٩٠٤م

٨- أمـجـد السـامرائى .... شاعر عراقي ولد سنة ١٩٢٣م

٩- بـشـارة الخـورى .... شـاعر لبنـانى ولد سنة ١٨٩٠م

١٠- الـبشـيـر الـعريـجـى .... شاعر تونسي معاصر

١١- تـركـى كـاظم جودة .... شاعر عراقي ولد سنة ١٩٣٦م

١٢- جـمـيـل أحمد الكاظمي .... شاعر عراقي ولد سنة ١٩٠٥م

١٣- جميل صدقى الزهاوى .... شاعر عراقي معاصر ولد سنة ١٨٦٢م

١٤- حسـين زيـد الـكيلانى .... شاعر أردني ولد سنة ١٩٣١م

١٥- حـسـين الظـريفـى .... شاعر عراقي ولد سنة ١٩٠٩م

١٦- حـكـمـة الـبـدري .... شاعـر عراقي ولد سنة ١٩٣٧م

١٧- رشـيـد أيـوب .... شـاعـر مهجـري ولد سنة ١٨٧١م

١٨- الـشـاذلـى طـاقـة .... شـاعر عراقي ولد سنة ١٩٢٩م

١٩- الطاهر القصّار .... شاعر تونسي معاصر

٢٠- عبد الحميد الرافعي .... شاعر مصري ولد سنة ١٩٣٢م

٢١- عبد الحميد فرج البدرى .... شاعر عراقي ولد سنة ١٩٤٠م

٢٢- عبد الرزاق بستانة .... شاعر عراقي ولد سنة ١٩١٦م

٢٣- عبد الرزاق محيى الدين .... شاعر عراقي ولد سنة ١٩١٠م

٢٤- على عقل ... شاعر مصري معاصر صوفي

٢٥- على محمد الحائر .... شاعر عراقي ولد سنة ١٩٢٢م

٢٦- على النيفر .... شاعر تونسي معاصر

٢٧- عيسى اسكندر المعلوف .... شاعر معاصر

٢٨- فوزى المعلوف .... شاعر معاصر مهاجر توفى سنة ١٩٣٠م

٢٩- أبو القاسم الشابي .... شاعر تونسي ولد سنة ١٩٠٦م

٣٠- ( لقمان ) .... اسم مستعار لشاعر عراقي ولد سن ١٩١٩م

٣١- كمال الجبوري .... شاعر تركي عراقي ولد سنة ١٩١٧م

٣٢- مجيد عبد الحميد ناجى .... شاعر عراقي معاصر

٣٣- محمد أسعد ولاية .... شاعر معاصر

٣٤- محمود عزت المفتى .... شاعر سوداني معاصر

٣٥- موسى بن محمد الكناني القمراوي .... شاعر شامي قديم توفى سنة ٦٥١هـ

٣٦- مير بصرى .... شاعر عراقي ولد سنة ١٩١٢م

٣٧- نسيب أرسلان .... شاعر لبناني توفى سنة ١٩٢٧م

٣٨- أبو الهدى الصيادي .... شاعر معاصر

# ملحـــق ب

## بأسماء الشاعرات اللاتى استشهد من معارضاتهن فى ثنايا البحث

١- أمـيـنـة عـبـاس ... كـاتـبـة وشـاعـرة مـصرية

٢- زينب عبد السلام .... حفيدة شقيق الشاعر المصـري الكـبير إسماعيـل صبرى

٣- عـاتكة الخزرجى .... شاعرة عراقية معاصرة ولدت سنة ١٩٢٦م

# فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى طبعة الساسى
- تاج العروس للزبيدي محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق ( ت ١٧٩٠م ) دار إحياء التراث العربي
- تاريخ الأدب العربي – لكارل بروكلمان – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م
- تاريخ المعارضات فى الشعر العربي – للدكتور محمد نوفل– دار الفرقان عمّان ١٩٨٣م
- تاريخ النقائض فى الشعر العربي – للدكتور أحمد الشايب – مكتبة النهضة المصرية ط٢ ١٩٥٤م
- تاريخ النقد الأدبي – للدكتور/ طه أحمد إبراهيم – دار الثقافة بيروت
- تهذيب اللغة – للأزهري : محمد بن أحمد الهروي ( ت ٩٨١هـ ) تحقيق طائفة من العلماء – القاهرة ١٩٦٤م
- جمهرة أشعار العرب – للقرشي : أبى زيد محمد بن أبى الخطاب ( ت ١٧٠هـ ) دار الميسرة ١٩٨٣م
- الحلة السيراء – لابن الأبار : محمد بن عبد الله بن أبى بكر ( ت ١٢٦٠م) تحقيق الدكتور حسين مؤنس – دار المعارف ١٩٨٥م
- ديوان طرفة بن العبد –دار بيروت ١٩٨٢م.
- ديوان الفرزدق – دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧م
- ديوان عمر بن أبى ربيعة – دار الكتاب العربي ١٩٩٢م
- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة – لابن بسام – : أبو الحسن على الشنتريني تحقيق الدكتور إحسان عباس – دار الثقافة بيروت ١٩٧٩م

- السيرة النبوية لابن هشام أبي محمد عبد الملك بن أيوب الحميريّ – تحقيق السقا وآخرين – دار الكتب العلمية .
- الصلة لابن بشكوال : خلف بن عبد الملك بن سعود – الدار المصرية ١٩٦٦ م .
- غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزري محمد بن محمد تحقيق برجستراسل دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م .
- القصيدة الحصرية فى مقرأ الإمام نافع – للإمام المقرئ الحصري القيرواني – تحقيق الدكتور توفيق العبقري – مكتبة اولاد الشيخ القاهرة ٢٠٠٢م
- لسان العرب لابن منظور : محمد بن مكرم ( ت ١٣١١هـ ) .
- المسالك والممالك لابن فضل الله العمرى – مخطوط مصور نشر بعناية فؤاد سزكية .
- المعارضات فى الشعر العربي – للدكتور محمد بن سعد حسين – النادى الأدبي – الرياض ١٩٨٠م
- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب – لعبد الواحد المراكشي ( ت٦٤٧هـ) تحقيق محمد سعيد العريان – القاهرة ١٩٦٣م
- معجم الأدباء – ليـاقوت الحموي ( ت ١٢٦ هـ )دار الفكر ط٣/١٩٨٠م
- موسيقى الشعر – للدكتور إبراهيم انيس – مكتبة الأنجلو المصرية
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – لابن خلكان أبو العباس شمس الدين بن محمد ( ت ٦٨١هـ ) تحقيق الدكتور إحسان عباس – دار صادر – بيروت
- يا ليل الصب ومعارضاتها – لمحمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى – الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس